قناديل من قلق

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: قناديل من قلق
التأليف: عبدالله النفاخ
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 232 صفحة
عدد الملازم: 14.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2017/14738
الترقيم الدولي: 978-977-278-608-4

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

قناديل من قلق

بقلم

عبد الله النفاخ

دار البشير للثقافة والعلوم

-١-

ارتمى على الأرض مشرعًا ذراعيه للّاشيء الكامن وراء كل شيء، طالبًا الراحة من عالم خفيّ؛ لعله يكمن وراء الحس، ينجيه مما باتت تتخبط فيه نفسُهُ العمياء بين مومياوات السحر وأجفان الضياع.

وهو مغمض عينيه، لاحت له أشباح ماضٍ أسود، تتكرر متعانقةً في وئام سرطاني.

– كلهم كانوا ضدّي، كلهم نقموا عليَّ لأني أخالفهم، لأني أمثّل نقطة الضعف الخيّرة في نفوسهم المريضة، يريدون تغييبي عن نواظرهم لئلا أذكّرهم بعجزهم عن ابتغاء مثلٍ أعلى في الحياة.

لكنهم في سبيل هذا، أهانوني ووجّهوا إلى قلبي جراحًا لا تُحصى.

– والآن، أنت تجرح من لا ذنب لهم في سبيل لأْم جرحك.

أيقظه صوتها، التفت ليراها كما هي، ملقيةً نفسها على كرسيّها الخشبي، مستسلمة لجمودها من فرط انهيارها.

خاطبه صوتٌ واخز من أعماقه:

– أبهذا تجزيها بعد أن أفنت عمرها في سبيلك!؟ تجزيها بأن تتركها نَهْبًا لمأساة جديدة بك، ألا يكفيها ما لقيتْ!؟

– كفى.

راح يتلفّت بعنف محاولًا إسكات الصوت الصادح في رأسه، علّه يُسكت ما يفعل كلَّ ما يستطيع.

فقالت أمه، وقد ابتسمت ابتسامة سخريّتها المميزة:

– لن تفلح، هذا صوت إلهي مصوغ لأسماعنا، لن تملك إسكاتَه مهما فعلت.

كأنما دبّت فيه قوات العالم أجمعها، فانتفض قائمًا، وتشبّث بجسدها الوَقِر كتمثال للعذراء يتوسط باحة كنيسة قديمة.

– بالله عليك، أفهميني، أرجوكِ، أترينني أملك السبيل ثم أتنكّبه، أرى الصراط ثم أعرض عنه، تلك ذكريات سكنتني، تعلّقتْ بمصامّ روحي فلا تفلتها، أراني أشتهي الموت فلا

يدركني، أنت تعلمين أني لم أؤذِ أحدًا، لكنّهم جميعًا سخّروا ما يقدرون عليه لإيذائي.

قاطعته وقد فتح فاهُ مسترسلًا في التَّتَمَّة:

– وإن يكن، مرّ بغيرك أقسى مما تقول، الحل لا أن تُميت نفسك وتميتني معك، إن شعرتَ بأنك قصّرت في حق نفسك فلا تنتقم مني، فلقد اكتفيت من الدنيا، اكتفيت.

سالت دموعها رغمًا عنها، وتغضّن وجهها فبدت أكبر من سنّها بعقود، فلم يملك إلا أن يطأطئ رأسه خجلًا مقرًّا أنه كان أنانيًّا في انتقامه من نفسه أمامها.

قام على مهل، خطواته المتعثّرة دفعته غير مرة للانكباب على وجهه، لاح لعينيه شعث ماضيه يتركّب كجراح تخدش جسد بركان، وأساه وشعوره بفقدان القيمة والقدرة على التجدد؛ يدفعانه لتغييب صورة المستقبل عن عينيه.

وصل الفراشَ، ارتمى عليه، وكعادته إذ يُسند رأسه إلى الوسادة يتحسّن بعض حال دماغه الملتهب.

– لعل في القضية جانبًا عضويًّا كذلك.

ترك لعينيه– وقد أغمضهما– مجال السرح في فضاء رقراق، عسى يحوطه شيء من بنفسج الأحلام بعيدًا عن عبث الواقع به.

لاح له رماد الأسى يكلّل سني عمره السبع والعشرين، كان للبون الفكري الشاسع بينه وبين زملائه فعلٌ معجِزٌ غير مرة في توجيه السهام إليه، لكنّ الأمر لم يتفاقم على صورة لا يمكن احتمالها إلا في تلك المدرسة.

– مرة أخرى تلك المدرسة؟!

نفض رأسَه كأنما يقشع عنه غبار معركة.

– لقد دخلتُ عالم الذكريات لأصرفها عن ذهني ولو قليلًا، ينبغي ألا تعاودني.

وفجأة، برزت له من تضاعيف الذاكرة صورة (نيرمين)، حب المراهقة الذي علق قلبَه دون أن يبوح لصاحبته ببنت شفة، كانت تكبره بأعوام، وتعمل موظفة في مكان يقصده أحيانًا.

مذ رآها أول مرة قرّر أن يحبها، اجتمع قلبه وعقله معًا عليها، لم تسلبه ذهنه ولا نظره مباغتةً، بيْدَ أنه لم يغرب عن قلبه شيء زكي يغشى محياها، بريق أهداب سحري لمسه في عينيها، وشيء من لحن أدبي يترقرق في صدره أيامها، لقي صداه على ملامح وجهها.

أرادها ملهمةً يتلقّى عنها الأدب، وكانت، فيوم رآها أول مرة عادَ فأغلق على نفسه باب غرفته، وشرع يخطّ على

ورقة نصف بالية كلماتٍ غير ملتئمة، يهديها إلى التي لمّا يعرف اسمها، وانتظر من بعدٍ شهرين ونصفٍ ليراها مرة أخرى.

كانت الدنيا شتاءً، وهي تستدفئ بآلة كهربية قرّبتها من نفسها، لم تكلمه كثيرًا، لكنّ المصادفة قيّضت له أن يسمع من مكان قريب صوتَ أغنية يندبُ صاحبُها حظه من الغرام، فيجتمع الواقع والمؤثّر لديه، لكنه مرة أخرى لم يجرؤ أن يفتتح معها حديثًا.

كانت في المنتهى من نعومتها وطلاوتها، لم تثرْ فيه الغريزة، وتأمل وأطال التأمل، فلم يلقِ في وجهها ولا في تعاريج جسمها ما يؤججها.

بل لقي ما كان له نورًا، إشراقًا، فسحة من عذوبة.

وأما غير ذلك من شهوات الجسد ورغباته، فلا مكان له ولا مكين.

ومرة أخرى.. طال الفراق.

قطع صوتُ مزلاج الباب جلستَه الصوفية، دخلت أمه حاملةً صينية القهوة وعليها فنجانان، فقام إليها يحملها عنها:

- كيف نهضتِ لمثل هذا وأنت على ما أنتِ عليه؟!

فابتسمت له بتودّد:

- لكي تعلم أني لم أكن يومًا- ولن أكون- ضدك، أو ضد أن تبرز مكنونَ نفسك، لكنّ هذا الذي تفعله ليس إبرازًا، بل تحطيم.

أصغى مطرقَ الرأس، يهزه بالموافقة بين ثانية وأخرى، ثم رفعه في سكينة مزيّنًا فاهُ ببسمة أمل.

– ما يزال في العمر سعة، وفي القلب محل لم يطفئ ضياءَه المقتُ.

فنهضت إليه بلهفة، واعتنقا بحميميَّة عظيمة.

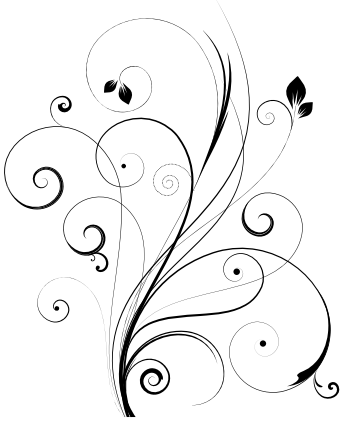

-٢-

- كيف أنت؟

أخرجه سؤالها- الذي برز له فجأة في لوحة المحادثة- من حمئة ما يطالع في الصحائف «الفيسبوكية»:

- أووووه.. ما هذا البلاء؟

صدح بعبارته، وقد أدرك أن هذه الإنسانة لن تدعه وشأنه:

- أهلًا بكِ.

كتب لها الترحيب باهتًا، عساها تدرك أنه ليس مستعدًّا لتحمل ما يرى من سماجتها الساعةَ.

لكنّ أسئلتها انطلقت تترا:

- كيف أنت؟ كيف أمورك؟ كيف تدريسك في مدرستك الجديدة؟

– يا إلهي، إلحاحها لا يحتمله أحد.

وفي المقابل، افتتح محادثة مع زميلته الجامعية القديمة (سوسن) يشكوها همَّه:

– بالله عليكِ، أخبريني كيف لي بالخلاص من هذه التي كلّمتك في شأنها؟

ضحكت كتابةً، ضحكة لطولها شعر أن رذاذاتها وصلته عبر الأثير، فلمست وجهه:

– أهذا ردُّكِ على من أتاك يبوح بما في خاطره؟

– لا، ولكن لِمَ لا تحمل إعجابها على محمل السرور؟ غيرك ينتظر من أنثى أن تجيبه، لا أن تبتدئه الكلام.

– لكنْ ليس بهذه الطريقة ولا بهذا الأسلوب، إنها مغيظة، مستفزة جدًّا.

– كفاك تدلّلًا، قلبك يتطاير ووجنتاك كالرمان من السعادة.

كتب لها، وقد غلبه الضجر:

– ليس الذنب ذنبك، بل ذنب من أتاك يشكوكِ همه.

لكنه إذ عطف على نفسه لم ينكر أن شيئًا في فؤاده قد تحرّك، لقد حرّكت سوسن بكلماتها مكنونًا يحاول أن يصرفه

عن ذهنه، فهذه الفتاة تُسعِده من حيث تضجره، وتعيد إليه إحساسه بقيمة نفسه من حيث يراها تحصره.

عادت إليه موجة الذكريات، سريعًا تذكّر فلانة، وفلانة، وفلانة ممن أحبهنّ فلم يرضينه، أو أحببنه فلم يرضهن، ليرى نفسه خاسرًا في كل ما سلف من علاقاته.

– هذه تسعى إليك سعيًا، تبتدرك بالحب، مثلها ستحمل إليك السعادة على طبق من ذهب.

هتاف نفسه التي يراها أمّارة بالسوء بدأ يغالبه، فعزم أن يقوى عليه بشيء من ضغط العقل.

ولينجو من هذا وذاك؛ سجّل خروجه من المتصفّح كله.

كان الطريق في اليوم التالي إلى المدرسة محفوفًا بالإزعاج مذ ركب الحافلة التي تقوده من الجسر الكبير وسط العاصمة إلى باب الثانوية في الضاحية غير البعيدة، والسائق يتحدث مع الركاب عن إغلاق الطريق المختصر الذي طالما سلكته المركبات، وعن ضرورة سلوك الطريق الآخر الذي تشغل المطاعمُ والمقاهي جانبَيْه.

شيء عادي يحصل بين الفينة والأخرى في ظل الحرب التي دخلت سنتها الثالثة، لكنّه وقد صحا من نومه متأخرًا لم يتلقّه بطيب نفس؛ لأنه يعني تأخّره عن موعد حصته الأولى.

أخرج جهاز «محموله»، وعيناه على كوب القهوة الخالصة الذي اشتراه من بائع جوّال، خوفَ أن ينسكب منه قليل من غير قصد، نظر في ساعة الجهاز فإذا هي الثامنة إلا ثلثًا.

– أرجو أن لا يؤخّرنا هذا السائق.

وأتبع قولَه نظرًا في الواقفين بجانب الحافلة، كأنما يرجوهم أن يلجوها لتنطلق به وبهم.

عدّ الركاب، ثم التفت إلى مَن بجانبه، فإذا هو شاب قريبُ السن منه:

– يلزمه راكبان، أرجو أن يأتيا بسرعة؛ لئلا نتأخر أكثر.

هزّ له زميله رأسه بالموافقة، وحرّك شفتيه وعينيه حركة ممعنة في التأييد، وما هي إلا دقيقتان حتى دخل الحافلة الصغيرة اثنان بالزي العسكري، وناديا السائق لينطلق نحو الحي الحديث المتطرف عن المدينة، فهو منها وليس منها.

لقي الحركةَ أمام باب المدرسة إذ وصلها غيرَ طبيعية، الطلبة متجمهرون على شيء من الاضطراب، وبعضهم يمدّ رأسه من الباب مستغربًا على غير المعتاد من أمرهم.

فلم يسأل أيًّا منهم، لكنه إذ ولجَ الباب لقي إحدى المدرّسات في مقابله، وعلامات الانبساط بادية على وجهها، فبادرها بالسؤال بعد التحية:

– ما جديد اليوم؟ ما هناك!؟

– جاءنا مدرس أنشطة لا صفّيّة، أما علمت؟

– معقول! أخيرًا!!

كان ضبط المدرسة هاجسًا يشغل بال الكادر التعليمي كله، وقد أقفرت من أي مسئول ينهض به، بعد أن غادرها المدير الذي شغل إدارتها عقدًا من الزمان ملقيًا على عاتقه الأمور الإدارية جميعًا، استجابةً لقرار من مديرية التربية، سعى به الساعون من داخل المدرسة ومن خارجها، فآل الأمر إلى معاونته البعيدة عن شئون الإدارة والتدبير.

فبدا قدوم مدرّس الأنشطة غير الصفّيّة من بعد، المسئول عرفًا عن تدبر شؤون الطلبة خارج فصولهم، كظهور المسيح المخلّص في بيداء المدرسة الغارقة في الفوضى والاضطراب.

دخل صاحبنا والبشاشة تملأ محيّاه، فوجد القادم الجديد قد جمع كثيرًا من الطلبة في باحة المدرسة، ووقف على علٍ يوجّههم ويوبّخهم.

حركة فارقة ممن لم يئن له أن يتعرف أهل المدرسة وإدارتها، بله أن يباشر تأدية صلاحياته.

ألقى صاحبنا تحية السرور والاستبشار، فرد عليه بتكشير المستعلي، موجِّهًا إليه صدمة صباحية غير مرغوبة ولا متوقعة.

- أهذا الذي أتونا به؟

تساءل في سره، وهو يصعد درجات السلم الحجري ليلج الصرح المدرسي.

لكنه إذ لقي الجميع مبتهجين في الداخل بمجيء من يحمل عبء المدرسة المنفلتة أرجاؤها من كل ضابط، ابتهج لابتهاجهم، قائلًا في سرّه:

- مهما يكن من أمر، فالمهم أن يضطلع بما لم يضطلع به غيره.

وإن يكن صمم في دخيلته على اختراق سور الرماح الذي يحيط به هذا الآتي نفسه.

وبعد أن انصرم أكثر وقت الدوام، نزل غرفةَ الإدارة فلقي المكلَّفة بتسيير الشؤون-معاونة المدير سابقًا- نادية، والآتي الجديد معها.

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام.

ردّا ببعض ترحيب، أشعره أن عكر الصباح الملقى على وجه مدرس الأنشطة كان جزءًا من التجهم للطلبة المتأخرين لا موَّجهًا إليه، فانفرجت أساريره:

– أهلًا أستاذ، شرف لنا نزولك بيننا.

بدماثته المعتادة باشر حديثه، فلم يلقَ ما يماثلها من مقابله، لكنّه رآه تنازل عما كان عليه من فوقية فجّة، راضيًا أن يترك باب الحوار يُفتَح.

نظر فيه صاحبنا متعمقًا، فتبدّى له امرئً حذِرًا، مضطرب الأعماق، يتصنّع ثقلًا غير متوازن، متحفّزًا لأي مؤثّر، يحسب كلماته من قبل أن يقولها.. لا حكمة، بل تكلّفًا وتعاليًا.

– ليس شخصية مريحة على أية حال، لكنني سأعرف كيف أستنزله من حصنه.

ردّد في نفسه، والحوار ما يزال منعقدًا بينهم عن المدارس وتنقلاتها، وكيف أوصلت الأيام القادم الجديد (منذرًا) إلى حيث وصل.

وشيئًا فشيئًا، تخلّق بعض صحبة.

كان صاحبنا يرى أنه حتى الساعة قد خرج رابحًا من مراهناته مع نفسه على كسر حاجز الشخصيات العصيّة على المصاحَبة، فقد تمكّن من دخول مجتمع المسئولات الإداريات اللائي جعلن أنفسهن في كنّ بعيد عن الآخرين، وتمكّن من التقرب من الموجهة (لمى) التي هي وحدها قصة نادرة التكرار.

جميلةً كانت، لكنّ أنوثتها ضائعة في معمعة الشدة التي تأخذ بها نفسها، والعزلة الغريبة التي تحرص على أن تتقوقع فيها، منزوية عن أهل المدرسة جميعًا، قاضيةً أكثر وقتها في غرفتها وحيدةً موصدةً بابها، فإن تجرّأ أحد وولج حظيرتها، سارعت إلى تحويل مجرى الكلام معه بحزم إلى ما يكفل فضّ المجلس سريعًا، أو أسمعته تلميحًا لا يخلو من تصريح يدعوه إلى الخروج.

نموذج فريد جديدٌ عليه، وقد قابل كثيرًا من الإناث في حياته وفي أعماله، أنثى جميلة نضَتْ عن نفسها ألصق صفات الأنوثة بالمرأة، ثم لم تبالِ أأثّر ذلك في جاذبيتها أم لم يؤثر، تفخر بما لم تعتدِ النساء الفخرَ به من قسوة وشدة وضبط للطلبة، وتجانب ما تفخر به مثيلاتها من جمال ولباقة وجاذبية.

وعلى ذلك، فقد تعمّد كسر جدار عزلتها، وإن يكن في أعماق نفسه تساءل: لَمَه؟

وكان الجواب حاضرًا:

– لأنها تناقض في أشياء كثيرة الموجهة التي أذاقتني العلقم في المدرسة البائدة.

سريعًا، رغم طريق الأشواك الممضّ في مجاهل دماغه، يسارع كلما ساءل نفسه إلى استدعاء صورة تلك المرأة الأربعينية، ذات الجسد المترهّل والوجه القبيح، التي قضت أيامها مذ

نزل تلك المدرسةَ، تستعدي عليه مَن فيها فيمالئونها، حتى إذا لقيت مصيرها المؤسف قتلًا على باب بيتها ذات صباح، على يد مجموعة مسلحين جاؤوا يريدون خطف زوجها فنهضت تدفع عنه، فما تأخروا عن إعمال رصاصهم في جسدها، وجد صاحبنا نفسَه الحزينَ الوحيد عليها من دون جوقة متملقيها في حياتها، الذين لم يكتفوا بالتصريح بعدم تأثرهم لما حلّ بها، بل مضوا يحضّونه بعنف على أن يسلك مسلكهم.

كم استشعر الغثيان آنئذ!، بل لم يملك عقله تحمّل بلادة مشاعرهم واستهتارهم بما أصابها ثم تجرؤهم على التصريح بما هم عليه، وفيهم مَن كانت تقضي أكثرَ وقتها معهم، ثم إذ بلغهم مصرعها لم يرفّ لهم جفن.

كلما نفر من «لمى» أرغم ذهنه على استحضار صورة تلك، فتتقبّل نفسه الزميلة الجديدة مهما أتت من فعل، ومهما لاح من رديء صفاتها، فرديئها يمسي حسنًا جميلًا إذا ما وُزن بحسن تلك، كما رديء كل شيء في هذه المدرسة يمسي جميلًا ألِقًا إذا ما وُزن بحسن تلك المدرسة.

ألم نفسه يعقبه ألم جسمه إذا ما ذكر ذلك المكان، تمالئ مَن فيه عليه وإساءاتهم الدائمة التي ابتلعها عقله وقلبه حتى أجهدتهما؛ كلُّ ذلك كان من القسوة بمكان يضغط على جسده. ولاح له العلاج المبدئيّ في أن يذكر أهل المدرسة الجديدة

ويندمج فيما بينهم، وأن يلج غرفة «لمى». فساعده أن «لمى» لم تتشدّد معه في الحفاظ على جدارها الصقيل، وإن تكن تلقي أحيانًا بتلميحات غير مريحة، إلا لا تلبث أن تنسخها بما يحمل القرب والوداد، كأنما تتنازعها قوتان: راغبة بجذبه، وراغبة بنبذه، فتجاهل القوة الأخرى وعزم أن يأخذ بالأولى.

ذلك كلّه قبل أن تطأ قدما منذر أرض المدرسة، أما من بعد مقدمه فقد تخلّق واقع جديد.. جديد تمامًا.

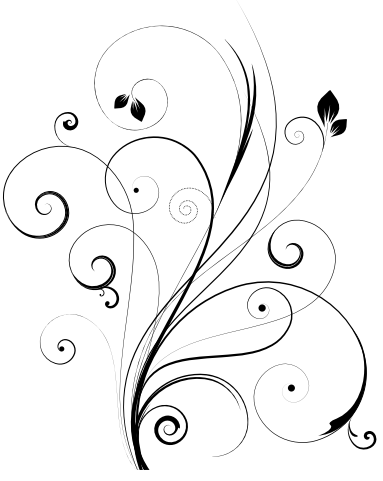

-٣-

في رابع أيام نزول منذر المدرسة، دخل صاحبنا أحد الفصول المعروفة بشغب طلبتها، فلقي المدفأة ملقاة أرضًا، ووقود المازوت يفترش بلاط الفصل، والطلبة متجمهرون كعادتهم في موقف كهذا هارجين.

فكر أن يتصرّف من تلقاء نفسه، فذكر أن «لمى» دخلت هذا الفصل مرة خلال حصته، ووبّخت الطلبة بعنف لأنهم تصرّفوا دون إعلامها في شأن أقلّ من هذا، فشعر يومها أن الكلام موجّه إليه كما إليهم.

أمرهم أن يتركوا كلّ شيء كما هو، وطلب من بعضهم أن ينادوها من حيث هي إذ لم يرها في حجرتها، والمكان الوحيد الذي تقصده إن خرجت منها لحاجة غرفة الإدارة.

نزل الطلبة فطال غيابهم، ثم أتوه وبسمة خبيثة تعلو وجوههم:

– وجدناها في حجرة الأستاذ الجديد، مغلقين على نفسيهما الباب، لكنها لم ترضَ أن تأتِ.

– وقلتم لها ما الشأن؟

– قلنا والله.

وراح اثنان منهم يتهامسان على جنب، فعرف مجرى الحديث وإن لم تتناه أصواتهما إليه.

مرت دقائق والفصل معطّل والطلبة في هرج، فأرسل بضعة آخرين، ثم مثلهم، ثم مثلهم.

أربع دفعات من الطلاب طلبت «لمى»، ثم عادت بالجواب نفسه:

– في حجرة الأستاذ الجديد، وقالت إنها ستأتي بعد قليل.

ساءه فعلها، وساءه ألا تبالي به، لكنّ ما ساءه أكثر أن لم تنتبه إلى ما سيكون مادة حديث شائن بين طلبة في أوج مراهقتهم، لا تذهب بهم أذهانهم في موقف كهذا إلا إلى أقبح الظنون.

بعد لأيٍ قدِمَتْ تصعد الأدراج بنزقٍ شديد، ووجهها يكاد يتشقق من الغيظ، ومن خلفها منذر مطأطئًا رأسّه كأنما تجرّه بحبل.

فردّد صاحبنا في نفسه:

– ويلي منها، الساعة لم تدع مجالَ شك لدى الطلبة فيما كان يدور بينها وبينه، قاتل الله الغباء وما يفعل بصاحبه!

لم تلتفت إليه، بل كلمت الطلبة موبّخةً متجاهلةً وجوده، وأمرتْهم أن يحتملوا أجزاء المدفأة ثم يلقوها في غرفة قريبة تُجمَع فيها المخلّفات والتوالف من أثاث المدرسة.

فالتفت إليها راغبًا في استرضائها وقد رأى ما رأى من نزقها:

– لم أرض أن يحرّكوا شيئًا إلا بعلمكِ، فأنا أعرف أن تلك رغبتك.

فقابلت عبارته بتجهّم مفاجئ:

– أكان صعبًا عليك أن تطلب منهم حَمْلَ المدفأة ورميها في الغرفة؟!

أذهله ردّها، لكنه تماسك وعاجلها بالرد:

– لكنني أعلم تمام العلم أنك لا ترضين أن يتم شيء كهذا دون علمك.

فأشاحت بوجهها عنه، ولم تنبس ببنت شفة، فيما أسرع فأدخل الطلبةَ فصلهم متعجبًا من جرأتها أمامهم، ومن مناقضتها نفسها.

وبعد فراغه من الحصة مرّ بحجرتها فلقيها ومنذرًا، متحفّزة لمواجهته مستنفرةً كنمرة:

– أتجتلبني وتجعلني أصعد الأدراج إليك لأجل هذا الشأن التافه!؟

فارتسمت معالم الاستغراب على وجهه:

– أهذا شأن تافه!!؟ أمسؤولية مدفأة محطّمة ووقود يملأ الأرض مهيّأ للاتقاد في أي لحظة بأدنى شرارة طائشة؛ شأن تافه؟!

استرسلت كأنْ لم تسمع ردّه، مبدية أنها لن تصمت مهما تكن قوة رده وحجته، فغايتها أبعد من هذا الموقف، وإذ أحس ذلك فلم يقبل أن يتضاءل:

– ألم تدخلي الفصل منذ فترة غير بعيدة، وتوبخي الطلبة لأنهم لم يعلموك بشيء أقلّ شأنًا من هذا وتصرّفوا من تلقاء أنفسهم.

– وما شأنك أنت؟

ردد في قلبه: ما قصتها؟

– ما شأني؟!! كان كلامك للجميع ولمست أنني معني به.

– وعندما أدخل الفصل فأسألك عن المشاغبين فتعيّن لي فلانًا وفلانًا، أليس معنى ذلك أنك لا تضبط الطلبة؟

فاجأه كلامها، واضح أنها لا تحتكم إلى منطق، ولا تبني ما تقول على واقع، بل تخبط خبط عشواء، فهل السبب أنه قطع خلوتها الحميمية بهذا الجديد!!

– أنا أرفض إحراجكِ حين تسألينني، فأذكر لك من أتوا أفعالًا صغيرة لئلا أخذلكِ أمام الطلبة.

فاسترسلت بكلام آخر، موجهةً الخطاب إلى منذر هذه المرة، كأنما تستعينه عليه:

– مثلًا مدرس مادة العلوم، لا يدخل فصلًا إلا ويدخلني معه، يفشل في أدنى ضبط للطلبة ويريدني أن أنهض بما هي مهمته.

– ولِمَ تقارنينني به؟ ما شأني وشأنه! متى استدعيتك لتضبطي طلبتي؟

احتدّت لهجته إذ لمس الزيغ والإجحاف منها، حتى إنها لَتلومه على ما يفعله إرضاءً لها، ثم تقارنه بذلك المدرس الذي يتمالأ عليه طلبة فصله والفصول الأخرى لتغدو حصته فصلًا مثيرًا من الكوميديا الهزلية.

فلم تتنازل، بل عطفت على مسألتها الأولى:

– أليست إساءةً لك أن تستعين بأنثى؟!

– أنثى!! متى استعنتُ بك إلا لهذا الذي من مهماتك؟!

ووالله لو لم تذكري أمامي هذا الجانب وخشيت أن أزعجكِ ما فعلتُ، أنتِ من دخلتِ الفصل وعتبتِ إذ لم يعلموك لشأن أقلّ خطرًا.

– آها.. وأنت مطيع جدًّا!!.

بسخرية أطلقتها، فأطلقت الخواطر في صدره:

– هذا الجديد نزل منها منزلة الروح والفؤاد والدم، كأنما تريد أن تصرفني عن نفسها ليستأثر بها وتستأثر به، أيُعقل؟

لكنّ نداء تحسين الظن عاجَلَه كما عادته:

– إلى أين تذهب بك خيالاتك السارحة؟ كأنك لم تعرفها ولم تخلطها بنفسك زمنًا! لن تصل الأمور هذا الموصل، لكنّها الصحبة بينكما تؤتي أُكُلها شيئًا من جرأة أحيانًا.

– ولِمَ لمْ تنفجر هذه الجرأة إلا الآن؟ وأمامه!!

كان نداء نفسه المشكّكة قويًّا، ظاهر الحجة، لكنه أصرّ على كبته.

وتشاغل بشؤون أخرى، متناسيًا وصارفًا عن ذهنه ما لقي منها.

-٤-

جرى مركب الأيام بالمدرسة، وبمن فيها، سريعًا في بعض أيامه، بطيئًا في بعض، والجو العام لا يروق صاحبَنا، ولا أمثاله.

التحفّز وخيالات تشدّد النفوس في شأن نفسها وشأن غيرها؛ تحوّم فوق المجالس دومًا، والفصل بين المدرسين والمدرسات عنوان المكان، وفي الانفصال الصمتُ سيد الموقف، فإن لم يكن فالحواراتُ الجانبية.

ضاق صدر صاحبنا بتغيير الوضعِ إذ وجد مرتضى من كثير من المدرسين عمد إلى الثورة محاولًا كسر سدول الرتابة، جلس في منعزَل المدرسات فلم يعمدن إلى إبعاده، لكنهن لم يُدرن من الأحاديث ما يجعل للمجلس طلاوة، وحاول خلق حوارات عامة عسى يشترك فيها الآخرون، فوُفّق إلى بعض ما أراد.

ما كان ذلك ليؤثر فيه لو لم يأتِ المدرسة محمَّلًا بذكريات المكان المقيت الذي خلّفه وراءه، ولما عاد إلى التدريس إلا ليطلب للعلاج من الذكرى القاتلة التي عششت في دماغه وقلبه، وسيطرت على شعوره، ولما لم يلقَ العلاج كما أراد؛ غمرته الخشية من ارتكاسٍ يعود عليه بشرٍّ مما كان.

صمّم على كسر جدار الانعزال الصقيل بكل قوة، صوته الجهوري ساعده كثيرًا، صار يخلق الحوارات والنقاشات المشتركة بين المجلسين المنعزلين للمدرسين والمدرسات، ويشترك أحيانًا في ما يديره اثنان أو اثنتان فيما بينهما، راكنًا إلى أن الأطراف الأخرى لم تشتدّ عليه أو تحاول صرفه متمالئة كما أهل المدرسة السابقة.

وعلى ما لقي من جوّ ليس كما يريد، فإن شمسَ نفسه راحت تشرق، وهو يرى في الناس مَن يتمثلون أبدالًا لمن عزموا يومًا على تغييره، بل على تغيير مسار حياته برمّته ليوافق مبتغاهم، وهو وإن لم يُجارهم فيما أرادوا؛ فظلال ما فعلوه ألقت بعتمتها على نفسه منذ ذاك الحين.

أما إنكار زملاء اليوم- وإن أبدته الوجوه- فلا يُترجَم كلامًا، فكيف يقارَن بالكلام الفظّ الخشن في المدرسة القديمة، الذي إن نهض رادًّا على قائله؛ قام إليه فلان وفلان منافحين

عن خصمه ورأيه، ليلقى نفسه مغلوبًا على أمره، ضعيفًا في مواجهة اجتماعهم، مهما تكن حجته وشخصيته قويَّتيْن.

بات من طقوس يومه أن يستلقي على أريكته وقت الأصيل، صانعًا جردًا لما كسب في أيامه السحرية هذه، وإذ يرى باب الفرح تفتحه له أيدٍ من أزاهير، فيتبدّى من خلال فرجاته نورٌ تشرق به الأبصار، وما استعصى عليه من أمر نفسه بدأت عقده تنحلّ، وغدا النصر في متناوَل يده، بل هو يلمس أطراف جدائله ببنان كفّيه، وكسر عقدة المدرسة السابقة ما عاد في مرآه غير مسألة وقت تغدو بعده نسيًا منسيًّا.

لكنّ شيئًا ما، شيئًا غريبًا تخلّق في المدرسة مع مَقْدم منذر.

ظلال مغرقة في السواد فرضت نفسها على كل شيء، وجوه المسئولات الإداريات ازدادت جمودًا، فلاحت تخفي أشياء لا تسرّ، وصرن أكثر انعزالًا وانقباضًا كأنما يأتمرن بمن بقي من طاقم المدرسة، وزاد انعزال المدرسين وانتقادهم للطاقم الإداري، منذرُ جرّب مرة أو مرتين أن يدخل غرفة المدرسين ثم ولّى مثبورًا، ليكتفي بصحبة الإداريات والانخراط في حِلْفهن.

ذلك كله كان صاحبنا يراه فلا يحوز منه كبيرَ اهتمام؛ لأنّ ما أمامه من خير أو شر ليس سوى جنة من أمل، إذا ما قُرن بما عاناه في مدرسته السابقة.

وبينما هو سادر في غفلته، نالته مخالبُ تلك الجنة على حين غِرة.

دخل ذات ظهيرة حجرة المكلّفة بتسيير شؤون المدرسة؛ حيث تُعقَد مجالس الإداريات عادة، كان الجو عاديًّا حين بدْء الحديث، لولا مدرّسة مخضرمة في مادته نفسها أخذت تتساءل بشأن بعض قضايا في مادتها، فأتاها بالجواب الشافي وزيادة على عادته في الاستفاضة.

وعلى أنها رزينة لم يعهدها من المسيئين، فقد حرّكت غلبته عليها ـ وهو في سن أصغر أبنائها على مرأى الجميع ـ ثعابين الغيظ في صدرها، فتعمدت أن ترد الصاع أصْوُعَا.

وبعبارة خبيثة حوّلت البنادق كلها إلى نحره:

– ما شاء الله، علم غزير وفهم نادر.

ثم أطرقت بضحكة يتفجر الخبثُ من خلالها:

– لولا تلك العلل فيك!.

فعاجلها مستعليًا بثقته بنفسه:

– أي علل تلك!!؟

وكسيل العرم، كتسونامي، تدفقت العبارات الناقدة عليه من كل حدب وصوب، مُخرجةً من الأخطاء له ما لم يعرف ولم يحسب: خروجه الباكر من الفصل قبل انتهاء الحصة بدقائق،

إنهاؤه منهاج الشهادة باكرًا لئلَّا ينقطع الطلبة قبل الفراغ منه، تحريكه المسبحة بين يديه بطريقة تزعجهن.

صعُب عليه أن يتصدى للردِّ، والإعصارُ يأتيه من الجهات جميعًا، والمفاجأة قد غلبته على نفسه فكيف ينطوين على هذا كله تجاهه، وعلى أنه ردّ وأمعن في ردّه، فلم يبصر حوله إلا أفواهًا تتكلم وتتكلم، غير راغبة بأي إصغاء.

أذكره تكتّلُهن على نحو مؤلم ما أتى المدرسةَ عازمًا أن ينساه، ومن حيث لم يرغب تتالت الذكريات السود، فانهالت على ذهنه فردمت بصيرته، وأسدلت الظلال على عينيه.

رأى نفسَه قبل عدة سنوات، قبيل الأزمة التي غدت حربًا طحنت البلاد والعباد، يسلك الطريق الذي دُلّ عليه نحو مدرسة ابتعثه مفتشُ المادة إليها.

بعدما قصده في وقت حرج بين الفصلين الدراسيَّيْن، حين لا شواغر كثيرة ولا تنقّلات، فاقترح عليه في لامبالاة:

– هناك سبع عشرة حصة في الضاحية الفلانية.

وكما فرحٌ مشتاقٌ أُلقيت له هدية من السماء تلقّف صاحبنا القول:

– نعم، أذهب.

– حسن، هي ذي ورقة التكليف، اذهب بها إلى الموظف في إدارة التعليم الثانوي، ثم امض إلى المدرسة، وذا عنوانها على الورقة.

وحين وصل الحي الذي يحتويها في الضاحية القريبة، التي جعلتها الحرب ساحة صراع كبرى من بعد، وجدَ نفسه في بيئة بعيدة كلّ البعد عن جو المدارس والتعليم.

كانت تلك البدايةَ، ولم يدرْ في خلده أنه من ورائها تكمنُ المأساة، تكمن الأيام التي ستطلعه على مكنون نفوس ما كان يخال وجودها، إلى أن غادر المكان بعد لواذِ سنتين، وقد أمسى شخصًا آخر، ماتت داخله أشياء، وشاهت أشياء، وفقدت أشياء ثالثة بهجتها.

قبل أن يغرق في حمئة الذكريات نفضَ جسمه وهزّ رأسه يمينًا ويسارًا، مستعيدًا مقامه بين الإداريات:

– الضعف لحظةً مع أمثال أولئك يعني أن يُثخنَّ فيك جميعًا، يعني الموت.

وانتفض يدافع باستماتة عن كل ما عدّوه أخطاء، فإن يكن لا مجال للانتصار فلا يعني ذلك الهزيمة، ونفسُه تقول له:

– لا يمكن لك أن تظهر ضعيفًا خائر القوى أمام هؤلاء، ولا أن تكفّ عن المنافحة عن نفسك وإن على خطأ، فهم ليسوا

ممن يفهمون قوة التراجع عن الخطيئة أو يدركون الفضل الذي فيها.

أما بطل الجلسة، فكان دون منازع منذرًا، يدعم الجلوس ضد صاحبنا، وفي مرة أو مرتين يدعم صاحبنا ضد الجلوس، منتفخًا انتفاخَ من يرى الفهم والتجربة الطولى استُغلقا على غيره، ومُنحت مفاتحهما له وحده، يتناول الآراء الملقاة أمامه بالتقوية والتضعيف، متّخذًا مجلسه إلى جانب المكلَّفة بتسيير شؤون المدرسة كذكر الطاووس.

لم يكن طبيعيًّا أن يحوز كل هذه القوة والتمكين، ولمَّا يمض عليه في المدرسة إلا بعض شهر، وراحت حركاته غير المتّزنة، وتلويحه بكفيه وذراعيه وانفعاله دون سبب تلفت نظر صاحبنا، ويلوح له منها التواء نفس شديد.

ثمّ إذ انفضّ المجلس، قام منتشيًا كمن انتصر في معركة ثأر تاريخي، على ما دلّت حركاته وانتفاخة صدره، فأدرك صاحبنا أن ما وراء هذه الصورة لن يكون نصحَ مخلص أو نقاش حريص، ثم قرنه بمجمل ما كان من منذر خلال الجلسة وبعدها، فتوثّق أنه شخص مهزوز، مريضُ أعصاب وذهن، يصنع ما يصنع تفريغًا لمكبوتات نفسية تستولي على أعماقه.

فشعر من ذلك بطعن في خاصرة كرامته، وأنه اتُّخذ مطية من هذا الغريب لإبراز ما في صدره، ولاحت له إلى ذلك إداريات المدرسة دمًى قماشية يحرّكها محرّك ما، لكنّه على ذلك تبدّى له أقل شأنًا من أن يكونه.

بيد أنّ رغبته في الترفع عادت فغلبت كل ما عداها آخر المطاف، وإن لم تزل تلك الطعنة تخز كرامته بمحل ذي وجع.

-٥-

يفرغ من دوامه في المدرسة خائر القوى، بيْدَ أنه مرتاح النفس، فيتجه وشمسُ الظهيرة تقرعه دون أن يحسّ منها بثقل وطأة إلى حيث يستقلّ حافلة صغيرة تنقله من الضاحية القريبة حيث المدرسة إلى الجسر الكبير وسط العاصمة، ليتشبّث من هناك بباب إحدى الحافلات الكبيرة الموصلة إلى حيه الشعبي شبه المنعزل.

وعند نزوله في الموقف الأخير، يجتلب طعامًا يقتاته مع أمه عند وصوله البيت، مسبحة أو فولًا مدمّسًا أو فلافل، يأتيها به فيجلسان إلى طاولة مستديرة صغيرة في صالون البيت يزدردان لقماتهما منه؛ ليسلم نفسه من بعد- واللقمة الأخيرة ما تزال بين فكّيه غالبًا- إلى قيلولة الظهيرة الممتدة عنده إلى ما بعد الأصيل.

هذه السلسلة اليومية التي اعتادها كانت تُشعره على رتابتها ببعض لذة، لعلها لذة تكرار إتيان الفعل أو ممارسته،

فلا يضيق بها أو يتسرّب إليه ملل، بل تسرّه على ما فيها غاية السرور.

وبعد أن ينهض من قيلولته تلك، يسعى وظلال المغيب تفرد أجنحتها على السماء مطاردة فلول ضياء الشمس إلى ما وراء الأفق؛ إلى برنامج «الفيس بوك» فيلجه كما ملايين على امتداد العالم كاتبًا ومحدّثًا، وكلما ولجه اكتنفه الرعبُ من شيئين:

أولهما وأثقلهما وطأة عليه: ندى، المدرّسة التي عرفها في مدرسة الضاحية- (الخربة) أو (البائدة) كما يسميها- أولى سِنِي تدريسه هناك، فإذا هي تسكن حيّه نفسه، وإذا الحافلة التي تقلّه إلى المدرسة صباحًا تجمعهما غيرَ مرة، ويجمعهما من قبلها الوقوف في انتظارها.

كانت له بادئ الأمر زميلة كغيرها، حتى مع تقربها منه الذي راح يزداد يومًا بعد يوم، إلى أن استوثقت الأسباب بينهما فأوصلتهما إلى علاقة حبٍّ مستعجَلة، ما نسي يومًا أن دخوله فيها قد انتُزع منه انتزاعًا.

بيْدَ أن العلاقة لم يقيّض لها أن تكتمل أو تستوي على سوقها، وندى تلحّ عليه إلحاحًا عجيبًا كلما تحدّثا أن يسرع في زيارة منزلها مع والدته لطلب يدها، حتى لجأت إلى تهديده بأن أباها لن يوافق على الخطبة إن تأخرت الزيارة أكثر؛ لأنه

يلمس من وراء هذا التأخير رفضًا من والدته لإتمامها، وهو لا يرتضي أن يلقي بابنته في أتون مهلكة كهذه، فتأبط صاحبنا- من بعد- على شيء من الإكراه- ذراع والدته الستينية، مُصعِدَين في أزقة قاسيون، المنحوتة في عمق الجبل، نحو بيت ندى، ليعقدا مجلسًا مع والدها ووالدتها، لم يجدا فيه من عوامل الالتقاء ما يُذكَر، لكنّ صاحبنا تحت الإلحاح، وجد نفسه آخر الأمر يتمتم بحروف سورة الفاتحة، معلنًا بدء الارتباط في صورته الرسمية، قبيل أن ينفضّ المجلس.

- أهذا ما اتفقنا عليه؟

ألقت أمه العبارةَ في وجهه ما إن ولجا دارهما، فالتفت إليها وقد علته الدهشة من تغيرها المفاجئ الذي كان تعليله ظاهرًا: فما يقال في البيت، لا يقال في الطرقات.

- ما هناك؟ ما تعنين؟

راحت ترشقه بنظرات تحمل الغضب منه، والخوفَ عليه في آن:

- هل اتفقنا أن نقرأ الفاتحة؟ ألم نذهب على نية التعارف؟

- أوَ ما رأيتِ كيف جلست الأم بجانبي؟ وكيف كانت ندى تنظر إلي؟ وكيف راح الأب يتكلم؟

- بلى.. وعرفت.. وفهمت.. وقلقت.

– ما تقصدين؟

– ألم تدرك أنها كانت مؤامرة قبيحة؟

وانصرفت إلى حجرتها في نزق، كعادتها كلما ملكها الضيق، وخلا إلى نفسه يدير كلامها في ذهنه.

فحين عاد في اليوم التالي من دوامه المدرسي، وجدها متحسنة عما تركها عليه، فتساءل في نفسه لكنه لم يصرّح.

وفيما هُما على الغداء، وجدها تبادره مبتسمةً:

– خالك سعيد يريد لقاءك.

نظر فيها بتركيز، فقد فهم ما دار من خلفه، وفهم سبب انشراحها:

– خالي سعيد!! وما الأمر؟

– يريد أن يقابلك.

– إذًا، فقد أطلعتِه على ما دار أمس تفصيلًا.

– ولِمَ لا أطلعه؟ ألا تريد له أن يفرح بك؟

نظر فيها مشكّكًا:

– لكنني وعدت عمتي أم فاضل أن أذهب إليها اليوم لأعلمها بنبأ الخطبة.

– فاذهب إليه قبلها، فأنت تعلم أنه ينام باكرًا.

نظر فيها نظرة ذات مغزى، وراح يقلّب الحساء بملعقة في يده.

ذهب في العشيّة إلى منزل خاله، ومن بعده إلى منزل عمّته، ففجأه أن لقي من عمته سيدة المجتمع الرصينة مثيل ما لقي من خاله ذي الطبيعة الانعزالية المتشنجة من إنكار وإذ هو فجأة بإزاء تشكيك عظيم في شأن ندى وأهلها لا يملك درْءه بأي حجة ولا يملك تجاهله، فقد تهاوت ردودُه كورق الصفصاف في ليل عاصف أمام كلام خاله وعمته الخبيريْن.

استغلقت عليه الدروب، فتلقف من عصارة ذهنه حلًّا مبدئيًّا أن يستشير قومًا لا من أهل أبيه ولا من أهل أمه ليضمن براءتهم من التحيّز، ولم يرَ خيرًا لذلك من أصحاب والده، فقصدهم يستمزج آراءهم، لكنه لم يلقَ لدى أحدٍ منهم غير ما سمع من عمته وخاله إلا، إنكار ثم إنكار، وتحذير كبير من ندى وأهلها وأطماعهم التي لا يحكمها قيدٌ ولا عرف، حتى لقد ذهب بعض أصدقاء والده إلى مدًى أبعد، فنصحه بالتملّص من القضية كلها بأسرع ما يستطيع.

فكرة محددة انعقد عليها إجماع كلِّ مَن قابل، فكانت أكثر ما سمع إحراجًا: أنهم لن يغمسوا أكفّهم في صحاف خديعته، فلن يشترك منهم مشترك في مراسم هذه الخطبة إن عُقدت.

وحيدًا لقي نفسَه والأبوابُ قد أوصدت جميعًا، فهذه ندى التي خالها زورقًا يرتفع به من أسن الأيام قد بدرَ منها ومن أهلها- بإجماع كل من يعرف- ما لا يقرّه عرف ولا مجتمع، لتتركه متنازَع النفس لا يدري أيستمر في الإقدام، أم يحجم كما يوصيه مَن حوله؟، فلبث وقتًا شاردًا سارحًا، حتى تمخض ذهنه عن فكرة وجدها مناسبةً، أن يطلع ندى على بعض ما دار لتأتيه بالرأي والنصيحة، أو تضغط على أهلها فتعدل مواقفهم إن لم تجد الرأي الذي تنصحه به، فيصل إلى اتفاق مبدئي مع مَن حوله، أو عساه يفقأ عين شكوكهم بالدليل القاطع أنّ اختياره ندى صحيح، وأنها صادقة في حبها مخلصة.

دخل برنامج التواصل الاجتماعي فلقيها في انتظاره حسب موعدهما اليومي، بادرها بالتحية فردت عليه كعادتها بعبارات اللهفة، فاطمأنّ إلى أن قلبها المملوء عشقًا لن يخالفه فيما يريد.

طرح عليها بعض الآراء التي اقترحها مَن حوله، وقبل أن يسرد في تبيان الحال، صعقته ردودها:

- أين الغرابة في ما قال أهلي!؟ ما قالوه يقوله مَن حولنا جميعًا، وفي أعراف مَن يحيطون بنا التكاليف كلها على العروس الرجل كما طلب أهلي، فلمَ هذا الكلام؟

- هكذا؟ والمهر الباهظ؟ أهلكِ أنفسهم دفعوا نصفه مهرًا حين زواج أخيك، فلمَ تطلبون ضعفه؟

– لا، اسمح لي، لا أقبل أن أقارَن بامرأة أخي صراحةً.

وسردت، تنافح عن أفعال أهلها، بغير لهجة المحبة الشفوق التي اعتادها منها، لهجةٍ لاحت له الحراب تبرز منها حتى لتكاد تخدش وجنتيه، فذكّرته ما نبّهه إليه بعض أهله:

– جرِّب أن تخالفها وستجدها نسخة من أهلها لا تختلف عنهم في شيء، فهي جزء من اتفاق عليك، نُسجت خيوطه بعناية وأنت غافل.

على غير إرادة منه تحاتَّتْ أوراق العواطف الذابلة عن منحوتة المحبوبة الرائقة، الأوراق التي أخفت بثورًا بل خرومًا كثيرة حاول مداراتها أو تغييبها، ليتبدّى من تحتها– الساعةَ– بنيانُ الحقيقة الأصمّ، فلا الجمال جمال، ولا الطبائع متناسبة، ولا المحتِد متساوٍ.

– وفوق كل ذلك يتعالون ويمعنون في التعالي، وهي تشدّ من أزرهم، بل تصرّح أن بعض ما قيل كانت هي صاحبة الاقتراح والرأي فيه.

اسودّت أوراق جنة العمر المنتظَرة على حين غرة، كل شيء آل حطامًا، فاستردّ على غير قصد منه مآسيه السابقة وأحزانه المتكرّرة، وعاوده شعور الحظ العاثر والدنيا المؤتمرة عليه.

وبعد جلسة عاصفة مع بعض أقربائه في اليوم التالي، أوصلوه فيها إلى قناعة مطلقة أن لا مفر من قطع الصلة بندى، ساردين مواقف البدء والختام منها ومن أهلها، مؤكدين أن ما لقيه منها ليس إلا بَدْءًا وراءه ما وراءه.

اكتملت في ذهنه الصورة وانعقد العزم، ووجد نفسَه مستعدًّا لمصارحتها بما أصبح في رأسه قرارًا مكتمل الأركان، فلقد غيّر ما بدر منها صورتها بل قلبها رأسًا على عقب، ولئن كانت الشكوى من أهلها، فلقد غدت اليوم منها هي.

خرج من بيت أقربائه وسط المدينة على حماسة، وراح يستعرض الطريق والناس الغادين والرائحين في أحد أكثر الأمكنة ازدحامًا من قلب العاصمة، نظر إلى السماء فألفى غيومَها تتجمع متهيئة لإنزال المطر في أي لحظة، فعاودته موجة فِكَره الميتافيزيقية:

– أهذا إيذان بأني مقدم على خير أم على شر؟

عبر الشارع أمامه ليدخل مركز انطلاق الحافلات المتجهة إلى الضواحي القريبة، والناس متجمهرون في انتظار حافلة فارغة يلقون فيها مأوى لأجسادهم التعِبة، فراح ينتزع لنفسه من بين الفرجات التي يتركونها فيما بينهم طريقًا، وعقله شاردٌ حائر:

– لقد اقتنع عقلي بنسبة مائة في المائة أن هذا الشأن ليس من الصحة إتمامه، لكنّ قلبي ما يزال غير ذلك، ونفسي لا تعينني أن أكسر قلب ندى، عدا أنني لم ألقَ من تبادلني الحب من قبلُ مثلها، أفحين أتتني أفعل بها هذا استجابة لأهلي؟

لكنْ ما أفعل إن يكن الجميع على رأي واحد؟! حتى الذين لم يعنفوا في إنكارهم لم يقبلوا أن يشتركوا في مراسم الخطبة ولا الزواج، أفيأتي إجماع كل أولئك الذين لا يعرفون بعضهم من فراغ؟ وكلٌّ من منبت وثقافة غير الآخر!!.

وصل باب مقهى الشابكة مع أولى حبات المطر التي وجدت طريقًا إلى رأسه، اتخذ مكانه إلى جهاز الحاسوب، والحيرة ما تزال تأكله، ولج برنامج «الفيس بوك» فلقيها في انتظاره، وقبل أن يفكر فيما يفعل بادرته بالسؤال:

– كيف أنت يا قلبي؟

فعاوده الحوار الممضّ:

– ألا ترى بم تخاطبك وأنت تنوي أن تكسر قلبها؟ ما تقول في هذه العذوبة وذاك الحب؟

لكنّ صوت عقله هذه المرة كان أعلى:

– انظر في مراسلاتكما السابقة، لا تكلّف نفسك كثيرًا، فقط ابحث عن ردودها حين كلمتَها فيما طلب أهلها، فباتت

تكلمك بلغة العروس لا بلغة الحبيبة، كأنك خاطب تقليدي لم تره إلا ساعة أتى بيت أهلها، المحبة فعل لا قول، وقد أثبتت بالدليل القاطع أن محبتها إياك ليست إلا رمادًا في مهبّ الريح.

تقوّى، استولى عليه العزم، وانطلق يصارحها بما قرره، مشفوعًا بكلمات الحب والعاطفة الرقراقة التي يصوّر لها أن مقصلة الدهر قد حكمت عليها بما تأباه.

فكأنما تملّكها الجنون، أو استولت عليها روح شريرة، فانطلقت تقاتل في سبيل الحفاظ عليه، ويقاتل قتالًا في سبيل الخلاص منها.

ذكر هنا قول أحد أصدقاء والده، وكان رجلًا رصينًا ذا بصيرة بالحياة وصروفها:

– إذا ما حاولت الانسحاب فستتعرض لضغوط رهيبة، رهيبة فوق ما تتصور.

فلم يصدق قوله أو يعرف مرادَه على حقيقته إلا الساعة.

وكذا كان، راحت تلاحقه منذ ذلك اليوم حتى خنقته، في الأماكن التي يختلف إليها، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي، وكل موقع إلكتروني يلجه.

ما برحت تحاصره، تصنع حوله أسيجة تلو أسيجة، وهو يصارع ويناور، مع حرصٍ على ألا يكسر زجاج قلبها، ملتزمًا

الكلام الدمث واللباقة المتناهية كلما سلكت طريق الشدة، لكنَ ما ثبت لديه بل غدا قناعة تامة، أن ما وراء هذا لا يمكن أن يكون حبًّا؛ لأنه على خلاف ما عرف من طرق الحب والمحبّين.

وبعد سنتين كاملتين أتعبته فيهما، خفّت وتيرة ملاحقاتها، التي كانت تشعره بنشوة وضجر في آن، نشوة راحت تتضاءل حتى تلاشت، ليستولي الضجر على محلها من القلب، وعلى أن الملاحقات قد خفّت، لما يبدو يأسًا غلب على أقطار نفس صانعتها، فإن خوف صاحبنا أن تكون فترة مهادنة أو استراحة، لا تلبث أن تنطلق من بعدها موجة ملاحقات جديدة بأسلوب ومنهج مختلفين لم يزايله، وما برح يشعر ببعض قلق وترقب كلما ولج برنامج الفيس بوك.

-٦-

وأما ثاني المزعجات، فتلك التي تباغته بكلامها وسلامها زاعمةً أنها معجبة بما ينشر في الصحائف الإلكترونية، فلمس في نمط كلامها من خلف شاشة الحاسوب سماجة وبلادة متناهيتين، لكنه- كعادته- تصبّر وتعالى، وإذْ وجدها تكثر من مكالمته وتظهر حرصًا عليه، فكّر أن يلقاها في مكان ما، فيعرف باللقاء ما لم يعرف بالرسائل.

واعدها على ندوة لزميل له في أحد المنتديات الأدبية، فتهيّأ عند اقتراب الموعد وتأنّق، وخرج قبل حلوله بزمن خشية عرقلة المواصلات طريقَه مع انتشار الحواجز الأمنية في شوارع المدينة، وما هي إلا دقائق بعد أن استقر في مقامه من الحافلة الكبيرة المتجهة إلى وسط العاصمة، حتى لقي السائق على غير العادة يتعمّد المكثَ عند الحاجز الأمني، على أن العنصر المفتش أشار إليه بالانصراف.

راح السائق ينادي على مسئول الحاجز فيما يبدو إشارة بينهما، بعد أن أوصد بابي الحافلة ليمنع نزول أيٍّ من الركاب، فأقبل رئيس الحاجز بعد دقائق في كوكبة من عناصره، وأشار إلى ركاب الحافلة الذكور جميعًا بالنزول.

نزل صاحبنا- في من نزل من الشبان- مرتاحَ النفس إلى أنه لم يأت ولا يأتي ما يحاسَب عليه، لكنه قلق كذلك لتأخره عن موعد الندوة.

ولما فرغت الحافلة من ركابها الذكور؛ أمر رجال الأمن النازلين بالاصطفاف رتلًا واحدًا، وبتسليم بطاقاتهم الشخصية لتُعرَض على سجل الملاحقين أمنيًّا، وما هي إلا لحظات حتى تبيّن ما وراء هذا التدقيق، فما أسرع أن نحّى الجنود شابين كانا معًا، ثم نظروا في جهاز جوال أحدهما فوجدوا صورًا لبعض رجال المجموعات المسلّحة التي تقاتل قوات الحكومة، ومن الكلام الذي طفق يدور فيما بينهم تبدّى أن ذلك الشاب كان ملاحَقًا، وأن الجهات الأمنية قررت أن تقبض عليه خلال وجوده في الحافلة، وتعاهدت على ذلك مع السائق.

وإذ نيل الوطر، غدا تفتيشُ باقي ركاب الحافلة اعتياديًّا، وصل الجنود إلى بطاقة صاحبنا الشخصية وجهاز جواله فما وجدوا ما يضير، سألوه أسئلة معتادةً، سؤال غير المبالي، ثم قال رجل الأمن الذي كانت بطاقته بين يديه بعد أن داعبه مخففًا عنه وطأة وقفته:

– اذهب.. يسّر الله لك.

غادر صاحبنا المكان لا يلوي على شيء، لا فرحًا بالنجاة؛ فقد كان متثبتًا منها، بل لهفًا للحاق بالندوة وقد تأخّر عنها.

شيء واحد نخزه في خاصرة أمله:

– وأنا ذاهب لألقى من قد أحبها، يكون مثل هذا أول مرة!.

طالما مررت بحواجز وتعرضت لتفتيش فلم يكن بمثل هذه الشدة.

أي إشارة إلى ما وراء لقائي بهذه الإنسانة، أهو إرهاص أو تنبيه لي أن أحذر؟!!

ذهنه المولع بالتفكير الغيبي راح يسرح به، فتمالكه قبل أن يذهب أبعد مما ينبغي:

– ما من أحد في البلاد لم يمر بمثل هذا مرة، بل مرارًا، وأنت عانيتها هذه المرة فلم تلقَ ما يضيرك.

لِمَ لا تنظر إلى الجانب الآخر؟، إلى النصف المملوء من الكوب، فلقد فتشوك ونظروا في اسمك فلم يقعوا على ما يضير، وهذه دلالة خيرٍ لا شر.

وجدت ابتسامة التعزي طريقها إلى وجهه وقد قارب مكان عقد الندوة، كان يعرف البناء من الخارج، لكنه لم يلجه

يومًا، فلما دخله هالتْهُ أدراج متلوية متتابعة كتنّين أسطوري، درجات تتلوها درجات كأن صانعيها رغبوا أن يعذبوا من يصعدها.

وإذ صل القاعة التي تحوي الندوة وقد أتعبه اعتلاء السلالم، وجد زميله منهكًا فيما يحاضر، فما إن رآه داخلًا والعرق يتصبّب منه حتى توقف ترحيبًا به، وحيّاه تحية مشرقة.

ومن مكانه الذي لم يجد غيره عند باب المنتدى، راح صاحبنا يسرّح نظره في الجالسات بحثًا عمن واعدها، فلم يلقَ في الوجوه ما يخاطب ذوقه في الحسن، حتى إذا وجد إحداهن تستقبله بابتسامة مطوّلة تقول بها: ها أنا.. سُقط في يده.

سُقط في يده، وقد لقي في وجهها وعينيها مزيجًا من كل ما لا يحبّ في الأنثى، فسارع إلى صرف ناظريه عنها لاعنًا في قلبه التعارف «الفيسبوكي» وما يجرّ على المرء، مداريًا خيبته العظمى.

ولبث على ذلك حتى انفضّ المجلس وراح من فيه يغادرون، فأقبلت إليه وجلست على كرسي مقابله، ليجد في حركاتها وكلماتها أضعافَ ما لمس في أول نظرة مما يكره، حتى بلغ به الضيق أشده، وراح يُظهر لها عزمه على الانصراف، لكنها لم تفهم ما يبديه بل لبثت مكانها لا تُريم، تاركة إياه في جوٍّ من الاضطراب واحتراق الأعصاب، إلى أن قامت طالبة

المغادرة بعد لواذِ نصف ساعة كانت قد استنفدت طاقاته في التحمل جميعًا، فشيّعها حتى باب المنتدى الخارجي، وعيناه معلّقتان بها حتى اطمأن إلى أنها ابتعدت، خشية ردتها أو أن تفكر بالعودة من باب آخر للمبنى، ثم آبَ إلى محل الندوة يتنفس الصعداء، وألقى بنفسه على أحد المقاعد منهارًا.

انقضى اللقاء الأول، لكنّ مكالماتها التي تضجره لم تنقض عبر وسائل التواصل الاجتماعي، فكان يضيق بها بدايةً، ثم بدأ يجد عزاء، ثم يستشعر راحةً لما لاح له إعجابًا به:

– ما هي عليه ظاهر النّفرة، مثلها لن تكون جذّابة للآخرين، وسعيها ورائي وحده دليل، أستغلّ هذا لصالحي، فأصيّرها كما أريد، فأريح نفسي وأبدّل صور الحبيبات ذوات الآراء المخالفة والنفوس المتشنّجة.

طفق يخاطب نفسه بهذا، ويوطّنها يومًا بعد يوم على احتمال ما يراه من أفعال سحر وكلامها فلا يروقه، باحثًا عن المشترَكات التي تجمعهما عساه يغالب بها الفوارق، وإن تكن لا تأتيه بغير حديث الدروس الخصوصية والطلبة الذين تعرض عليه أن يدرسهم حتى شكا أمرها يومًا إلى زميلته سوسن، فقد اشتمّ في كل هذا رائحة الإخلاص له والحرص عليه، وكلما نفرت نفسُه عزّاها:

– وهل عليك أن ترتبط بحسناء باهرة أو هيفاء جذابة؟!! أو لا يصح أن تخطب إلا بنت أفلاطون أو أخت المعري! أما الأوليات فلن يدعهن لك غيرك، وأما الأخريات فما أكثر الأدباء وأهل العلم الذين كانت زوجاتهم على غير حالهم، المهم في الزواج الألفة والوداد، والحرص المشترك على بيت يسكن إليه الإلفان، وأما ما غير هذا فتوابع يمكن الوصول إليها من بعد.

وهذا حرصها عليك، يتبدّى في كل أفعالها.

وشيئًا فشيئًا، وجد نفسه مساقًا إلى الارتباط بها، وفي ذهنه يتجلى الرأي:

– مَن تحرص أن تأتيك بالمعونة المادية في الدروس الخصوصية؛ فهي تقدّر طبيعة الحياة وضآلة الموارد في هذه الأيام النكدات، تثبت أنها تريدك لشخصك وتسعى في مناكب معونتك، وهذه النقطة الكبرى لصالحها، فما يفعل الجمال ورهافة الحس وطلاوة الشخصية أمام تقدير الظروف في أيام كهذه؟!!!

-٧-

يومًا فيومًا، باتت علاقة «لمى» ومنذر العميقة تزكم الأنوفَ في المدرسة، وعلى أن الطلبة أبناء جيل متفتح يعرف الزمالة والصداقة بين الجنسين، ولا يحملها على محامل الشكوك والرِّيب، فإن هذه العلاقة- دون غيرها- باتت مثار الشائعات والقيل والقال.

كان صاحبنا يلمس ذلك فينفعل لأجله ولا يروقه، فما تزال «لمى» منه بمكانة تمنع أن يقبل في شأنها أي قدح أو شائنة، وهو يفهم ما يدور وراء ظهره، وهمزات ولمزات الطلبة كلما رأوها في غرفة منذر، أو رأوه في غرفتها، لكنه لا يملك أن يدفع الاتهامات، وهي لم تقرع أذنه مهما يكن على يقين منها.

وكان يوم أحَد، لم يأت فيه المدرسةَ إذ وعك، لكنه تحامل على نفسه في اليوم التالي، وما إنْ دخل المدرسة حتى لقي التوترَ يعمّ الجوّ كله.

جلس في غرفة المدرسين إلى أحد زملائه، وإذ لمس أن التوتر ليس اعتياديًّا، التفت إليه:

– ما الأمر؟ الوضع اليوم غير طبيعي!.

– أف، أو ما علمت!

– بم أعلم؟ أنا أمس لم أداوم.

فضحك زميله ساخرًا، وهو يلوي رأسه:

– أحدهم أشعل النيران في غرفة لمى، والبكوات (وأشار إلى غرفة الإدارة) يبحثون عمَّن يلقون عليه التهمة.

رفع صاحبنا حاجبيه، قلقًا:

– ولمى!! هل أصابها مكروه؟

فنظر فيه زميله باستهتار:

– لا تخف عليها، أما تعلم أن مثلها كالقطط بسبع أرواح، إن هي إلا بعض دفاتر توقيع للمدرسين قد احترقت، واسودّت جدران الغرفة.

فرفع صاحبنا حاجبيه مستغربًا، مرة أخرى:

– إذًا، فلمَ يبحثون عمن يحمّلونه المسؤولية؟

فضحك زميله بسخرية مريرة:

–لأنهم لا يعيشون دون أذية إن يعش السمك دون ماء، ولكي يسوّغوا لأنفسهم إهمالهم في جوانب كثيرة يبحثون الآن عن كبش فداء.

– وهل وقعوا عليه؟

أصدر المدرس تنهيدة حسرة، ثم قال:

– سمعت أنهم يحمِّلون أبا ياسين بعض المسؤولية.

– أبو ياسين؟!

– يزعمون أنه حارس، والحارس مهمته أن يحيط بكل شيء.

– مدرسة مترامية الأطراف يُسأل عنها حارس واحد!! وما أدراهم أن الحريق ليس بسبب شيء ما تُرك يوم الخميس؟!!

فأجاب مدرس الرياضيات بنفاد صبر ونزق:

– تقول لي أنا!! قل لهم أو لهن، قاتل الله الأمراضَ المعششة في القلوب.

وانتفض ماضيًا إلى فصله، حاملًا حقيبته الكلاسيكية الجلدية من قبل أن يُدق جرس الحصة الأولى، كأنما يفرّ بنفسه من التفكير في أفعال من كان يذكرهم، تاركًا صاحبنا في استغراب مما سمع.

في فترة الاستراحة الأولى بين الحصص، كان الخبر قد سرى على الألسنة: أبو ياسين اقتيد إلى مخفر الشرطة لأنه متهم بالتقصير وقد تطاله تهمة الإسهام في إشعال الحريق، وكلمات المدرسين تنمّ عن الحنق والغيظ من النبأ، فإن لم تعبّر عبّرت

الوجوه، شخص واحد لاذ بالصمت هو صاحبنا، ولولا غلبة الرأي الآخر لنافح عن صديقته التي تُوجَّه إليها الاتهامات، لنافح عن «لمى» التي يلومها الآخرون تلميحًا وتصريحًا في أذية الحارس الذي يرونه بريئًا.

لكن ما لحظه بوضوح، وقد اشتعلت حجرة المدرسين بالآراء؛ أن زملاءه في الحدث فريقان، فريق عبّر ببعض كلام وبعض نزق، هم أولئك الجدد الذين لم يمضِ عليهم في المدرسة إلا عام أو عامان، وفريق عبّر عن غيظه بصمت عظيم، صمت من لم يعْجَب لأنه توقع مثل ما جرى وزيادة، وأولئك قدامى المدرسة الذين ألفوا مَن فيها وما هم عليه، ومن وراء صمتهم معانٍ ومعالم تدعو إلى الريبة، سرّبت الوجل إلى أعماقه فحاول الهروب منها، لولا أن قطعه قدوم (أسماء) المدرسة القديرة والقديمة في المدرسة من حجرة الإدارة، لتجلس إلى جانبه، فتتلقفها عيون الجالسين تسألها عما لديها، :

– كلهن ألقين القياد إلى «لمى» منفذين ما تريد، وهي تتهم أبا حمدي.

فقطع الحديث سائلًا:

– من أبو حمدي؟

أجابه أحد المدرسين بلا مبالاة:

– صاحب دكان البيع للطلبة.

وتركه في عجب من توجيه التهمة لرجل بعيد ظاهرًا عن مثل ذلك، فيما سردت أسماء حديثها:

– تقول إنها تشاجرت معه منذ فترة لأجل طالب، فتحسبه اتفق مع أبي ياسين على أن يلج المدرسة ليلًا؛ فيحرق غرفتها.

وجد صاحبنا القصة من الغثاثة بحيث لا تُسمَع، وإذ كان يثق في صدق أسماء فلم يملك تكذيبها، وإنْ بينه وبين نفسه، لكنه لمس الغرابة في نظرة الآخرين إلى الحدث كله، وإلى الاتهام كأنه شيء طبيعي أو اعتيادي ممن أتوه.

وبلغ السيل الزبا حين قال أحد قدامى المدرسة– غيرَ شاعر بنكران ما يصرّح به–:

– طلبوا مني أن أساعدهم في إصلاح المصوّرة، فرفضت تمامًا وادّعيت أني لا أعرف الطريقة.

ولاح على وجهه أن قوله خارج من كبد ذاق المرارة غير مرة لا ملقىً على عواهنه، فوجد صاحبنا سؤاله عن السبب ضربًا من العبث، وقد لاحظ في كلام المدرسين جميعًا أن الأذية سجية معروفة عن لمى خصوصًا وعن الطاقم الإداري عمومًا.

ولأنه يواليها مخلصًا، فقد أنكر– في نفسه– عليهم لا عليها وإن لم يجادلهم، لكنه سأل مدرس العلوم الطبيعية رائق النفس (سالم) إذ وجده يشاركهم آراءهم:

– ولم لا تقبلون أن تصلحوا المصوّرة، أمثل هذا قد يعود عليكم بالضرر؟ على أنه يكشف الجاني ويدفع الظلم؟

فأجابه بصدر ملآن، تعمّد ألا يُخرج من أعماقه إلا أقل ما فيها:

– لأن الوضع في مدرستنا معروف، تتدخل للمساعدة فتُحَمَّل تبعات المشاكل كلها مهما تكن بعيدًا عنها، بذا قضت الأيام فيما بيننا.

شرع طائر الشك يعربد في نفسه، فسَجنُ أبي ياسين، واتهام أبي حمدي، وتمالئ الإداريات مع «لمى» تأييدًا، كلُّ هذا لا يصدر من أهل خير.

لكن نفسه راحت تهنئه بخبث:

– جيد أني من جماعتها، صحبتي وإياها تجيرني من الوقوع فيما وقع فيه غيري، إن يكن أبو حمدي تشاجر معها شجارًا بسيطًا فحملته مسؤولية حريق، فما مصير من يعاديها؟ كذا صداقات أهل الشر، قد تدفع عن المرء غلواء شرهم.

وقام من مقعده يحسن من حال قميصه، متهيئًا لحصة جديدة.

بعد يومين، برز أبو ياسين من جديد في المدرسة، حانقًا مغضبًا يتفجر الغيظ من بين جانبيه، وكذا ظهر أبو حمدي،

كلاهما كان وجهه كجهنم تزفر، وإذ رغبت الإدارة في بعض السرية، فإن حواراتهما مع أفرادها ظلت طي الكتمان، محظورة على الآخرين.

وفيما يخطو صاحبنا نحو باب المدرسة للخروج ذلك اليوم، وجد أبا ياسين واقفًا إلى مدرس العلوم سالم، ينفث له عبرات صدره، فحيّاه وبارك له خروجَه من السجن، فانتفض أبو ياسين مشحونًا:

– أرأيت إلى فعلهم؟ أرأيت إلى سخفهم؟ لم ترحم الهانم (وأشار بيده عاليًا إلى غرفة لمى) ضعفي ولا حاجتي، ولا أني أويت إلى هذا المكان لضيق ذات يدي، ولا رحمت زوجتي المشلولة التي ليس لها من يخدمها، أيحق لها أن تتسبب في سجني ثلاثة أيام لفكرة خطرت في بالها!؟ ألا ترى إلى اللؤم والسخف و...

قبل أن يكمل أدار له صاحبنا له ظهره بجفاء، وقد تملكه نازعان: ولاءه للمى، ومن قبله وفوقه خوفه منها، ومن أن يبلغها أنه استمع إلى من يغتابها، تاركًا الرجل مكسور الخاطر مستغربًا، يتابع إخراج ما في قلبه للأستاذ سالم، ، لكنه لم يعاتب صاحبنا من بعد لفعلته، ولم يفتتح صاحبنا أي حديث بشأن ما جرى مع «لمى»، بل ترك كل شيء يجري كأنه لا يعنيه، كما لم تبادره «لمى» بأي حديث عن ما كان، كأنما تعلم أنه لن

يوافقها- ولو ضمنيًّا- فرغبت عن سماع رأيه، وعن رؤية نظراته المستنكرة.

أما طاقم الإداريات، فبلغ صاحبَنا بعدئذ أنهن اتفقن على شهادة واحدة: لقد أغلقنا جميع منافذ المدرسة بالمتاريس، ولم يبق بها إلا أبو ياسين، فما ندري ما بدّل من بعدنا!!

مكتفياتٍ بتبرئة أنفسهن، ومالأة «لمى»، وليلتهم الطوفان من بعدهن مَن يلتهم، فليس ذلك من شأنهن!

- ٧ -

– أتسمحين لي بكلمة؟

ردّت بنعومة:

– تفضل.

– أنا.. بصراحة.. لقد أحببتك.

ألقاها من نفسه، بعدما بيّت الشأن في ذهنه زمنًا، هذه التي رأى منها ما عدّه سماجة وبلادة، ثم لقي حرصًا عليه ولهفة لأجله، بل رغبةً في تحسين وضعه المادي قدر ما تستطيع، فوازن في نفسه الخيارات، ووجدها لصالحها، وبعدما نظر ودبّر، قرر المصارحة.

كانت (سحر) من بيئة شعبية، في حي بالغ الانغلاق والمحافظة، علاقات أبنائه على محافظتهم تحكمها المصلحة والتنافر وفقدان الألفة، والصيت الذائع أن مجانبتهم في التعامل الأسريُّ واجبة، و قد أفضت له من قبل أن يصارحها

بالكثير، بأسرتها التي حلقت الغربان في فناء دارها بعد أن هوى والدها صريعَ مرض رسيس، أفقده توازنه، وأفقده معه أكثر وعيه، وبأهل والدها الذين نبذوا إليه بعدما أفنى عمره في رعايتهم والحدب عليهم، بأخيها الذي عُلِّق فتاة فتزوجها من قبل أن يتدبر شئونه على أن يعيل ولا يُعال.

أفضت له بكل ذلك، وبكثير غيره، فاشتمّ أنه أمام أسرة تعاني الأمرّين، ومع الوضع العام المتوتر للبلاد، فلن يكون لأمثالهم تعالٍ كما كان من أهل ندى، بل لعلّه سيسرّهم أن يأتيهم من يرفع عنهم حمل إحدى بناتهم، عدا الطيبة المتناهية والخلق الحميد الذي قضت ابنتهم زمنًا ليس بالقصير تصوّرهم عليه وتنسبهم إليه.

أظهرت له بعيد المصارحة مفاجأتها، وأنها لم تحسب أن تؤول علاقة الإعجاب الإنساني، ثم علاقة الصداقة التي غدت عميقة؛ علاقةَ حبّ على هذا النحو، فردّ بقوله:

– هي مشيئة العزيز العليم، القلوب ملاك يديه.

برز له من كلماتها حياءُ الحسناء، وشوق اللهفَة المحافظة التي تخشى افتضاح مشاعرها، فزادته احترامًا إلى ما بقلبه، واستيثاقًا أن قرارَه كان في محله.

وما لبثت أن صارحته:

– لكنّ شيئًا كهذا لا يصحّ أن يخفى عن أهلي.

– ومن قال إني أريده أن يخفى!؟ أعلميهم.

– أو أنت مستعد لتزورنا ووالدتك قريبًا؟

غصّ بريقه لا رفضًا أو ريبة من قولها، بل لأنه ذكر ما كان من ندى يومًا، وقد لمس بعضَ تشابه في الأسلوبيْن.

– نعم، مستعد، أطلعيهم.

بحركة دلال ظاهرة قالت:

– وهل تعرّفت إلي بما فيه الكفاية لتقدم على خطوة بهذه الجرأة؟

رد بثقة:

– ما تلزمني معرفته قد عرفته، فلا حاجة للمزيد.

لاحت في خياله تستضحك خجلةً من خلف جهاز الحاسوب، وقد غمرها بحبه، وأعطاها قبلة الأمان، وما أسرعَ أنِ استأذنت متذرعةً بخجلها، فيما استند إلى مقعده رافعًا ساعديه وراء رأسه شاعرًا بالراحة:

– أهل طيّبون، وإخلاص عظيم، وحرص، ثم حياء بالغ، ما أريد خيرًا من ذلك كله!؟

وقدم في اليوم التالي المدرسةَ جذلًا، والنبأ الجديد يأخذ بأطراف نفسه.

شاء أن يطلع «لمى» لما بينه وبينها من صداقة، فلم يلقَ ردة الفعل التي توقّعها، أو التي تحمل أدنى قدر من المجاملة، ما زادت على أن أطلقت جملة مبارَكة تقليدية باهتة، ثم جلست تفترش الصمت.

حاول أن يختلق لها المعاذير فخانته كثيرًا، فأين العذرُ لها في كلماتها المنفّرة، في قسوتها المنفلتة من كل ضابط، في وحشيتها الكلامية التي تبلغ مداها الأقصى إذا ما جرُئ فولج حجرتها في وجود منذر، وأين كانت تلك الأشياء قبل قدوم هذا الجديد؟! وإن يكن لا صلة له بها؛ فلمَ لم تتبدّ من قبل؟

في مقابل كل ذلك، لجأ إلى أن يستميت في إظهار وداعته، كأنما يبرّئ نفسه من تهمة لا يعلمها، ألصقتها به، ثم حكمت عليه في محكمتها دون أن تترك له مجال دفاع.

بيدَ أن الموقف الأقسى منها جاءه بعد يومين، إذ دخل حجرتها الجديدة مهنئًا وقد نقلت أشياءها إليها بعد حريق الأولى، فباغته مشهد مذهل لإطلالة نافذ الحجرة على الربوة شرق المدرسة، الربوة الخضراء المتمددة خضرتُها على عدة تلال قريبة منها، إحدى أجمل المناطق اللصيقة بالعاصمة، وقد امتزج ارتفاعها المخضوضر بألق السماء التي اكتست حلة

الشتاء الرمادية، باسطةً جناحيها في المدى، خالعةً على المشهد كله مزيجًا من رهبة وشاعرية فريدتين.

أسرع إلى التعبير عن تأثره:

– يا الله! أي جمال هذا!! هنيئًا لك بهذا الانتقال.

ردّت صارفة نظرها عنه:

– لا يهمني من هذا التغيير إلا شيء واحد، أن حجرتي قد باتت ألصق بالطلبة لأعرف كيف أتابعهم.

ثم صوّبت نظرها إليه بقسوة:

– وكيف أعاقب خاطئيهم!.

تفلّت من نظرتها بإلقاء طرفةٍ، وقد لاح له من حركات منذر أنهما كانا يتناولانه قبل مجيئه بالقدْح، فجاء ولوجُه الحجرة تتويجًا لما يقولان، وجاء من بعد ردهما على الطرفة ظاهر الإحراج، تلقتها «لمى» ببرود وتجاهل، وعلق منذر تعليقًا بسيطًا حمّال أوجه.

ثم– ومن دون مناسبة– أطلقت «لمى» تعليقًا ناريًّا متوجهةً إلى صاحبنا:

– كذا أنا، من يزعجني أستدعي له الشرطة أو من فوقها.

فالتفت منذر إليه مؤكدًا قصدية العبارة:

– الشرطة تبقى أهون ممن فوقها، أليس كذلك؟

وبلا مبالاة نابعة من اطمئنانه وشموخه العنيدين ردّ عليهما:

– أنا لا آتي شيئًا تؤاخذني عليه الشرطة، فكيف بمن فوقها؟! أهلًا وسهلًا بهم في أي وقت، فأنا سليم الفعل طاهر الذيل.

ولكي لا يبدو انصرافه ردة فعل، لبث في الحجرة دقيقتين، ثم غادر بشموخ، يقلّب في ذهنه الخياراتِ:

– قد انتقلت «لمى» من التلميح إلى التصريح، وبات منذر يعينها جهارًا، فإما أغض سمعي وبصري متصنّعًا الغفلة، وإما موقفًا صريحًا، فأقاطعهما وأجانبهما، وربما أنقلهما من خانة الأولياء إلى خانة الأنصباء.

وما أسرع أن نفى الرأي الأخير من ذهنه:

– وذلك لا أرتضيه خُلُقًا ولا مبدأً، ولا قلبًا.

-٨-

وصل مع أمه بيت «سحر» بُعَيد المغرب، ففتح لهما الباب شابٌّ يصغره قليلًا تبيّنه أخاها الأكبر، ودعاهما إلى حجرة الاستقبال، لتدخل عليهما الأم بحلّة ذات رصانة، فيلفت نظر صاحبنا الفارقُ الكبير بين طولها الفارع وقصر سحر المميز.

ثم أُدْخِل الأب بمعونة ابنه وزوجه، واتَّخذ مقعده مقابل صاحبنا، وفي جلسته المَحكَمة تجلّى رجل قدير فعلت به الأيام فعلها، لكنها تركت عليه أثرَ ماضٍ جميل.

بدت الجلسة لصاحبنا رائقة، مرسّخة في ذهنه ما رسمت سحر من صورة لأهلها وجوّ بيتها، فلم يجد حاجة لتوكيد ذلك لأمه وهما يذرعان طريق العودة إلى بيتهما، كأن أمر إتمام مراسم الارتباط قد بات مقضيًّا، لكن ما فرض حاجب الصمت على كليهما، افتقار سحر إلى الجمال.

وعلى أنه يعلم ذلك من قبل الولوج في مراسم الخطبة، فإن مشهدها وقد دخلت الحجرة مالئة وجهها بمساحيق التجميل، أعاد إليه- رغمًا عنه- ذكرى لقائهما الأول، وكيف هالَهُ مرآها إذ ألقت إليه ببسمة التعارف.

لكنه سريعًا عدّل من وجهة خياله، وتفجّر في أعماقه حقده المستكنّ:

- ألي أن أنسى الجميلات اللائي قرعت بابهن فصدَدْنني دون غشاء من تجمّل، أأنسى نفورهنَ مني كأني مجذوم أو شحاذ واقف ببابهن؟!

وبقلب نبضَ فيه حرجٌ قديم:

- أولى أن أنسى هدى!!

سريعًا، ألقت به يدُ الذكرى السحرية في الجامعة قبل لواذِ ثماني سنين، يوم كان طالبًا يتشارك مع زميلته الفاتنة ذات القلَب الأبيض مقعدَ الدراسة، زميلته التي لم تنظر إليه يومًا إلا نظرتها لأخ لم تلده أمها، تاركةً قلبه تتنازعه العواطف، وبقيت له هاجسًا يؤرقه سنين، مستحوذة على تفكيره كيفما اتجه، في خصامهما وفي صلحهما، في هجرهما وفي وصلهما، كانت له كل شيء.. كل شيء.

وفي ليلة لا ضوء قمر ينيرها.. تزوجت.

كان يعرف ظروفها جميعًا، ويعرف أنه لم يعدُ لها أخًا وصديقًا دونه كل الأصدقاء، لكنّ ما في قلبه نحوها لم يتغير، لبث حبًّا عجيبًا يملك عليه جَنانه، حتى بعد كل تلك السنين.

- اليوم أراني انتقمت منها، اليوم أراني أثبتّ لها بالدليل القاطع أني لست الأعور الأشوه غير المقبول، هي ذي سحر تعشقني حتى الجنون، وأنا حلمها الوردي القادم ليحملها إلى دنياه، آآآه يا شعور النصر ما ألذّك! الآن أغمدت خنجري في جسد حب هدى من نفسي، الآن أراني حطَّمت آخر أصنام تكبُّرها الذي طالما أذلني، الآن.. الآن وليس غدًا.. أجراس الفرحة فلتُقرَع.

وبنفس يراها اتّسعت للدنيا وما فيها، ملتذًّا بشعور انتظره سنين طوالًا، استلقى على سريره كأنما يستلقي على عرش ملك حِيزت له الدنيا، وفي لحظة التذاذ بالراحة بعد طول جهاد، ملكه الوسن فنام.

شعوره ذاك بالنصر في حربه القديمة استأثر بشغاف قلبه وأنحاء عقله معًا، وتبدّى له أولى من شغل البال بمبارزات وقتية كالتي تستدرجه «لمى» ومنذر لخوضها، وإن يكن غير ما موقف قد بدر من «لمى» قبيل وبعيد الخطوبة لم يستطع تأويله إلا أنه إزعاج متعمَّد، فقد قرر أن يستمرّ في لعبة «الغميضة» التي يلعبها معها ومع منذر.

وجاء فرح الخطبة متَّسقًا مع تحسن حال العاصمة، فالأمن غلب على الأوضاع كما لم يكن منذ اندلاع الأحداث التي أفضت إلى الحرب، وصوت القذائف المجلجل من فوق الجبل المطلّ على المدينة نحو مواقع المعارضة المسلحة في ضواحيها تراجع شيئًا فشيئًا، فيما قلّت الاشتباكات داخلها بل كادت تتوقف، وما بين حيّ صاحبنا الشمالي الداخل في منطقة الحكومة الأمنية شديدة التحصين، والحي الجنوبي الذي تسكنه سحر- الذي كان أبرز مراكز الاحتجاجات داخل العاصمة- تغيّرت الأحوال، بل انقلبت.

كل شيء بات يفوح منه لصاحبنا عبير الأمل، مضافًا إلى جانب آخر، جانب تغيّر المجتمع حوله، فما تزال مقارناته أهل مدرسته الحالية بأهل المدرسة القديمة قائمة، ومادتها الجديدة الآن حاضرة:

- يوم حملت إليهم نبأ خطبة ندى قابلوني بوجوه متجهمة، على أننا كنا زميلين لهم، حتى إن النبأ لم يفاجئهم، ومَن تفاعل منهم تفاعل على ضآلة، أما اليوم فكل شيء مختلف، كل شيء أفضل.

لكم يروق له أن يخلق هذا الشجار الحلو بين ذكريات أمسه وواقع يومه في ذهنه كلما حانت مناسبة، شجارٌ يرى نفسه

انتصرت فيه بجعل ذكرياته السود دافعًا عظيمًا إلى الأمام، وإذ يقارنها بما آل إليه أمرُه، ينسى ما تأتي به الأيام من كدرٍ جديد.

لكن موقفًا حلّ به بعد أيام جعله يتريّث في بهجته.

كان قد عاد إلى البيت مأخوذًا بما يراه من تجدّد حياته، ففاجأه أن أطلّت سحر بنزق من بوابة المحادثة في موقع التواصل الاجتماعي مستفَزَّة، فسألها قلِقًا:

- خيرًا! ما بك؟

- أهلي يريدون مقابلتك الآن، حالًا.

- ما الأمر؟ ما هناك؟

- أمك اتصلت بأمي اليوم وأزعجتها.

- أزعجتها!!

كان يعرف من أمه بعض طبع خاص، لكنه لم يتوقع أن يدور هذا بينها وبين أهل سحر باكرًا هكذا، من قبل أن تظهر موجباته.

- حسن، أفهميني.. ما لك منتفضةً هكذا؟!

- كيف لا أنتفض وأمي على هذه الحال!؟ لقد ارتفع مؤشر ضغطها يا عزيزي!.

أمها على هذه الحال!!، لمس في العبارة رائحة مبالغة فجَّة لم يستطع تفاديها، لكنه وعد سحر بالمجيء، وارتد إلى أمه وفي ذهنه صراع أفكار.

بادرها بوجه ممتقع وهي في المطبخ تجلو الصحون:

- أمي، ما قلت لأم سحر اليوم؟!!

جاءها سؤاله صارخًا مفاجئًا، فألقت الصحون دفعة واحدة من يدها، والتفتت إليه في ذهول:

- ما قلت لها؟ ما هناك!؟

فانفعل حتى كادت الدموع تنفجر من عينيه:

- أمي، بالله عليكِ، أهذا وقت إخراج آرائك الاجتماعية الخاصة، أبعد ما وجدت من تحبني وأحبها تفعلين هذا!! لِمَ؟

أسرعت إليه والوجل عليه، والوجل مما اتُّهمت به يملآنها:

- أفهمني ما هناك؟ أي شيء جرى؟

تحامل على نفسه، وأخذ يسرد ما طالعته به سحر في كلامها، ليجد تعابير الدهشة تزول شيئًا فشيئًا من وجهها، فتحلّ محلها تعابير شعور آخر يعرفه جيدًا ويخشاه، فحوّل وجهه، وحلّت لحظة صمت اخترقها من بعدُ قوله:

– سأتصل بها الساعة وأفهم ما جرى، ولنحاول أن نصلح ما حصل.

وما إن قام حتى أوقفته، وفي لهجتها عتاب وغضب:

– انتظر، انتظر قليلًا، أما عليك أن تعرف أولًا ما قلته لها؟

استردّ مقعده على الكرسي متهاويًا، وقد غلبته حجتها القوية، وراح يصغي إليها وقد بان الانفعال الشديد على وجهها:

– لقد كلمتُها بصراحة عن بعض الطباع الخاصة لديك لتتفهمها، وأتعاون وإياها على التعامل معها، حدثتها عن نزقك، عن علاقتي الخاصة بك، عن تلاحمنا الجميل، عن أني إذا ما وجدت من يريد تفريقنا رفعت يدي إلى السماء داعيةً مَن لم يخيّبني يومًا أن يكفَّ الشر عني.

– ولا ضير في كل ما قلت.

– إذًا، فلمَ قالت ما قالت!؟

– سنكلمها الآن بالهاتف ونرى، فتعالي معي.

وضع يده على ظهرها يقدّمها عليه، متّجهَيْن إلى غرفة الجلوس؛ ليتصلا من هناك بسحر وأهلها، وابتدر الحديث.

برزت له أمها في الهاتف، صورة الأم الرصينة ذات الفهم والأناة تهاوت في لحظة، وتكشّفت من تحتها صورة أخرى، كأن ما لاح له في اللقاء الأول ليس إلا قشرة مهترئة تستر نقيضها.

لم تزد على ما قالت أمه شيئًا، لكن المشكلة تجلت في فهمها الكلام، فإذا أمه في رأيها ورأي ابنتها إنما تريد صرفهم عنه بوصفه بما لا يُحتَمل، وما كلامها على علاقتها الخاصة به إلا تلميح إلى أنه لا مكان لديها لزوج تأخذ ابنها منها، وما دعاؤها على المفرِّق بينها وبينه إلا تهديد ووعيد لمن يريد أن يزف ابنته إلى ابنها !!

حاول أن يقنعها بالمراد والمقصد، فازدادت إصرارًا، وكان الأنكى له أن راحت تحاور بعض مَن حولها دون أن تستأذنه مستعينةً بهم، بطريقة رآها تنمّ عن غباء، فعلّق في نفسه:

- أي قوم أولئك الذين أصهرت إليهم!!

وفجأة، غاب صوت الأم ليبزغ صوت ابنِها الأكبر، متكلمًا بلهجة ملؤها الخشونة والعامية الفجّة، تاركًا صاحبَنا بين الضحك مما يسمع والغضب، ودام الجدال قريبًا من ربع ساعة، ليتمخض أخيرًا عن اتفاق على اجتماع جامع في اليوم التالي.

في موعد الاجتماع، ولج صاحبُنا مع أمه بيت حميّه ليجدَا في مواجهتهما جوّ محاكمة عسكرية، دخل الأخ الأكبر أولًا خالعًا على نفسه حلّة الصرامة، وفتح الباب لتدخل أمه من خلفه تعين زوجها الذي أُلبس عباءة خاصة زيادة في الهيبة وفي إظهار جلالة الموقف، واتخذوا مجالسهم مقابل صاحبنا، وقد أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا.

ومن بعدُ دخلت سحر، دخول الأميرة المدلّلة على بلاط والدها الملك، فاعتنقت أمَّ صاحبنا وقبَّلتها، ثم اتخذت مجلسها بجانبها مظهرةً الحزن والاستياء، كأنها عصفورة نالتها مخالبُ جرحتها، لكنها استنقذت نفسها آخر لحظة.

وابتدأ الأخ كلامه، معيدًا ما قالته أمه من قبلُ، مركّزًا على فهمها لكل ما دار، فاستفزّ صاحبَنا الذي سبق أن أوضح له مراد والدته، استفزازًا لم يفقده قدرته على أن يدرأ الحجج بهدوء وحجة مقنعة، مع سخرية قاتلة تجلّل حركاته وتعابير وجهه ونظراته المنصبّة على جسد صبحي، قائلةً له بلغة الإيماء:

- أيعقل أنك ابن سبع وعشرين سنة يا هذا؟!!

فارتبك صبحي، وزاده ارتباكًا أنه لم يحسب- وقد قُدّم لمهمة أراد أن يثبت بها كونه كبير الأسرة في ظل مرض والده- أن خصمه سيبدو خلال الجلسة نسرًا متربّصًا، يعرف كيف يراوغه ويحصي مواضع زلله، فيباغته من بعد منقضًّا على

تلك المواطن عينها، مثخنًا فيه دون رحمة. فبدا عليه العجز، ثم الهزيمة، ثم شيء يقارب الذهول، وهو يرى أوراق لعبه التي هيأتها أمه وأخته له بعناية حسبتاها شديدة، تُنتزَع واحدة فواحدة، فيتلاعب بها خصمه اللدود، ثم يصوّبها إلى ما بين عينيه، وقبل أن يصحو من أثر الضربة الأولى، يكيل له صاحبنا الثانية، والثالثة.

ثم جاءت رصاصة الرحمة التي أنهت كل شيء من حيث لم يتوقع أحد، تحرّك الأب منتفضًا على كل ما هو فيه، فتنحنح ثم صوّب إصبعه نحو صاحبنا، وبصوته المتهدّج راح يردّد:

– كلامٌ سليمٌ.. كلامٌ سليمٌ.. كلامٌ سليمٌ.

تهاوى صبحي متصاغرًا كملاكم نالته من خصمه لكمته القاضية، وصمتت الأم على ضغينة، فيما راحت سحر تبتسم بمكر، كأنما قد أعدّت العدّة في نفسها لمثل هذه النتيجة، لكنها أصرّت على ما فعلت طمعًا في غنائم أُخَر مستقبلية.

-٩-

كان موقع المدرسة خاصًّا في جماله، على مرتفع في بُلَيدة تجاور العاصمة، آل قسم كبير منها حيًّا حديثًا من أرقى أحياء المدينة، وإن بعد عنها، ممتدًّا شمال المدرسة، وبقي قسم على حاله يضم البليدة القديمة ومساكن أهلها شرقها، ومن الغرب تمتد الطريق المشرِقة من العاصمة ربوةً ذات قرار ومعين، ومن جانب المدرسة يمتد شارع طويل، منخفضًا ثم مرتفعًا، موصلًا عابرَه إلى عمق الحي الحديث، الذي أريد له حين تشييده أن يكون مدينة جديدة.

وطلبًا لجو الجمال هذا، البالغ مداه الأَلِق ساعات الصباح والضحى، كان صاحبنا يحب أن ينزل ساحة المدرسة في وقت حصص فراغه، فيتنسَّم عبق جوّها.

وفي صباح من أصبحة أواخر نيسان النقيّة، نزل الساحة فلقي مدرس الرياضة ذا الطبع النزق (أكمل) يتخذ لنفسه

مجلسه المعتاد على سلمها الحجري، الذي يفصلها عن حرم المدرسة، فجلس إلى جانبه وبيده كوب قهوته الخالصة.

وما هي إلا دقائق حتى مرّ منذر من أمامهما، فحيّا صاحبَنا وحيّاه، بيد أن التوتر الظاهر لاح على وجه أكمل إذ ذاك، فدفع صاحبنا للسؤال:

- خيرًا! ليست أول مرة أراك فيها لا تسرّ لمرآه، أبينكما شيء.

فابتسم ساخرًا، وراح يلوي رأسه في حركة معتادة منه، يقصد بها أن الأمر ظاهر لا يحتاج سؤالًا.

فرغب صاحبنا كعادته في الإصلاح، وفي شيء من الاستطلاع:

- على أنه شخص خلوق ومحترم و...

- محترم!!

قاطعه أكمل سريعًا، واسترسل على ما رأى من مفاجأة على وجهه:

- تقول إنه محترم!! ليتك تسمع بأي لهجة وأي كلام يخاطب الطلبة، حتى سجّلوا أقواله الشنيعة على أجهزة جوالاتهم، وأسمعوني إياها غير مرة.

ولمس من صاحبنا استغرابًا واضحًا، فتابع:

- أو لم ترَ أو تستشعر كيف هيّج الإداريين على المدرسين!، وسخّر طلابًا ليتجسسوا على مجموعة مدرسين بينهم أنت!!.

ونظر في صاحبنا الذي جحظت عيناه من المفاجأة، ثم تابع:

- وكتابع ذليل، ككلب صغير بلا شرف ولا كرامة، يسلم نادية تقريرًا يوميًّا بأنباء تجسسه،لا يُخليه من بهاراته وتزيّداته، أفتسمي مثل هذا محترمًا!!؟

غلبت الحيرة صاحبنا، فمنذر هذا يتظاهر دومًا بشخصية المتّزن ذي الرزانة، والناصح ذي الخبرة الذي يوجّه الآخرين، فكيف يبدر منه كل هذا!؟ وقبل ذلك، كيف تتسق أفعالٌ كهذه مع ما يدعيه لنفسه؟!

وإذْ لمس أكملُ بعد انهياله بالأخبار معالمَ عدم التصديق على صاحبنا، عدّل من أسلوبه:

- لقد حاولت غير مرة أن أتصدى له وأواجهه، لكنّ طبيعته الخنثوية غلبت عليه فهرب.

- الخنثوية!!

قهقه صاحبنا عاليًا لهذه الصفة، وقعت منه موقعًا عظيمًا، وأعادته من عالم التساؤل إلى الواقع، إذ وجد فيها ما يوافق رأيًا مبطنًا كان يداريه في منذر.

فمضى يسأل أكمل:

- ولِمَ يختار أساتذة بأعينهم يتجسس عليهم؟

- أولئك الذين تشكّ السيدة الفاضلة- وشدّد على مخارج الحروف ممعنًا في سخريته- نادية في أمرهم، يسارع هذا الـ.... إلى ملاحقتهم من خلفهم إرضاءً لها، أتصدّق أنه سدر في غيّه حتى خلق مشاحنات بين الطلبة؟!

وصمت لحظة ثم تابع:

- شخص مريض، ولا أشد مرضًا منه إلا المتربّعون في حجرة الإدارة، يمالئونه ليريحهم من أعمالهم التي يهملونها، لكنه غبي أخرق، ينسى أنهم يريدون بذلك التبرؤ من تبعات أخطائه.

وبصرخة ضميرية هتف صاحبنا، وقد ران عليه شعور الاشمئزاز:

- ووسط كل هذا، كل هذه القذارة، الطلبة في سن المراهقة يدفعون الثمن.

راح أكمل يهز رأسه هزات متتابعة، وقد كسا وجهَه مثلُ ما كسا وجه صاحبنا، فقطعهما صوتُ الجرس معلنًا بدء حصة جديدة.

أثناء الحصة، خلا صاحبنا إلى نفسه، وقد ترك وقتًا للطلبة ينقلون خلاله ما خطّ على اللوح لهم، فمرّ في ذهنه سريعًا تسلسل الأحداث وما نقله أكمل عن منذر، وربطه بجلسة الانتقاد الهجومي التي عُقدت له في غرفة الإدارة يومًا، وكان منذر أحد أبطالها، بل محرّكها وقائدها، ثم خرج منها منتشيًا كأنما انتصر في وقعة تاريخية تنطوي على تحديد مصيره، ثم بزغ في ذهنه تغيّر (لمى) واقترانه بمقدمه إلى المدرسة وجلساتهما المغلقة.

– لم أعهد على أكمل كذبًا، ولم أرَ من منذر خيرًا ظاهرًا، بل لم أرَ إلا إرهاصات شر، ولكنْ لأدع الأيام تحكم بيننا بأحداثها.

وفيما يتخذ لنفسه طريقًا في الممر بين الفصول بعد انتهاء الحصة، لقي وجهًا جديدًا تلوح عليه سيما المدرّسات القديمات النمطيات، اللائي أدرك أواخر أيامهن مطلع التسعينيات، وكان لهن طراز خاص، في لباسهن وكلامهن وتصرفاتهن، طراز قلّ في هذه الأيام حتى كاد يختفي، ولم تكن من جيلهن، لكنّ عليها سيماهن.

فقرّ في صدره أنها موجهة جديدة ستسدّ شاغر موجهة منتقلة، فتهيّأ للسلام والتعارف، لكنها نظرت أرضًا واستمرت في المسير كأنْ لم تره، فكشّر وجهه، وأخذ يردد:

- قاتلها الله، ما أشدّ لؤمها!

وانطلق إلى محل حصته التالية. وفي تضاعيف الشرح خلالها استشهد بتفسير آية قرآنية، فقام إليه غير ما طالب قائلين:

- لكنّ مدرّسة التربية الإسلامية (نجاح) شرحتها لنا على غير هذا الوجه.

وعلى طبيعته من سماع الآراء الأخرى سألهم:

- وما قالت لكم؟

نقلوا له قولها فهالَهُ، فالآية مشتهرة بين الخلق جميعًا بتفسيرها، حتى ما يكاد أحدٌ من العامة يغفل عنه، فكيف تغفل عنه خريجة كلية الدراسات الإسلامية!، وتأتي بقول سقيم متهافت لا يعين عليه المعنى ولا اللغة!!

تربّص حتى حانت استراحة ما بين الحصص، فاستأذن نجاح- إذ رآها في حجرة المدرسين- على لطف، طالبًا أن يكلمها في شأن خاص، فلما انتحيا جانبًا سألها إن كانت فسّرت الآية للطلبة كما نقلوا له، فأجابت بالإيجاب واجمةً كأنما تقول له: وما شأنك؟، فلم يُعر نظرتها اهتمامًا، وراح يشرح أن الآية لا تتسع لهذا القول لغةً ولا نقلًا، وأن المفسّرين- على كثرة اختلافهم- لم يختلفوا على تفسيرها، ولم يقدر أن يكتم ابتسامة ظاهرة تبدَّى منها ملمحُ سخرية وهو يقول:

-لا يصحّ أي معنى آخر، العقل يرفضه لأن السياق واضح ظاهر لا يحتمل وجهين.

فازداد وجومها، حتى لاح أن أنفاسها تعلَّقت بترقوتها، فلم يعد بها قدرة على قول شيء أو الإتيان بحركة.

وقام من بعد، منخرطًا في أحاديثه مع غيرها، حاسبًا الشأن انتهى عند هذا الحد.

- ١٠ -

أديرت أكواب العصير، واستُحضرت صحون البوظة، وغلبت الحمرة وجهَ صاحبنا، فيما انخرطت أمُّه في بكاء شديد، وهي تراه وتسمعه يردد خلف الشيخ- قريب سحر- ألفاظ العقد المستَظهَرة، ويدُه في يد والدها.

كان في شبه غياب عن الوعي وهو يرى نفسه تلج دنياه الجديدة، والحاضرون الذين راحوا يعتنقونه واحدًا واحدًا مباركين له، يؤكدون ما في قلبه من أنها سعادة نهاية المطاف، التي ألقى عند مبتغاها عصا الترحال.

ثم دخلت عليه سحر- وقد انصرف المدعوون- متخذةً زينتها، فغلبه خجل عظيم وهو يراها في حلة ما رآها في مثلها، فطأطأ رأسه، فيما اندفعت بجرأة تعتنقه وتقبله على مرأى من أهلها وأمه، وهم يصفّقون في نشوة غامرة.

غلبه الجذل، كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وإذ انطلق يذرع الطريق مع والدته إلى بيتهما بعد السهرة اللطيفة التي دخلها عَزْبًا وخرج منها ذا أهل، طفق يجيل بصره في الطرقات الرئيسة التي تخترقها الحافلة، فرأى الدنيا كلها كأنما تفرح معه لفرحه، المركبات ازدادت أعدادها، والأنوار تلألأت مشعةً بريقَها، كأنما أخذ كلُّ مَن في العاصمة إجازة من الحرب وأجوائها ليسعدوا لسعادته، حتى أصوات القذائف التي اعتادت المدينة أن تسمعها لم تقرع أذنيه هذه الأمسية، فما يدري أهي لم تُقذَف أم أصمّه فرحه عن سماعها!.

وضع يده على رجل أمه معزّيًا، وقد لمح في عينيها دمعة إذ تنظر في الطريق من نافذة الحافلة، دمعةً يتقاسمها الفرح له والإحساس أنه قد خطا أولى خطواته في البعد عنها، كانت تستذكر أيامه طفلًا صغيرًا بين ذراعيها، ثم تلميذًا في الابتدائية، ثم طالبًا في الثانوية، ومن بعدها في الجامعة.. ثم.. ثم ..

ثم عروسًا اليومَ.

رفع يدها، ووضعها على خدّه:

- وسأبقى ما حييت طفلك الصغير المدلّل.

أخذها البكاء وأخذه، وطفقت تقبّل رأسه بحب، ويلثم يدها بلهفة، ناسيةً وناسيًا مجلسهما في الحافلة، ثم لم يعدِّلا

حالها حتى بلغا آخر موقف حيث بيتهما، وما زال يحضنها حتى دخلاه.

وإذ استرخى على سريره تلك الليلة، عاودته أطياف محبوبات الأمس ولا سيَّما هدى، فشعر أنه امتلك أخيرًا سيفًا يمزقها به تلك الأطياف التي طالما أبكته، وطالما حجّمتْه، طالما أشعرته بالغبن والانكفاء، تلك الطيوف التي أذاقته الأمرّين، اليوم بات له سيف يغالبها به، بل ينحرها نحرًا.

– هي ذي سحر اليوم، باتت لي كما كنتنّ لغيري، هي اليوم ذات السيف تقمعكن كما فعلتن بسيوف معشوقيكن.

وسرى خياله مع خطرات الليل، فتصوَّر لقاء يجمع هدى بسحر:

– ترى ما ستقول كلّ منهما للأخرى؟ أيتحرك قلب هدى غيرةً على من أحبّها فجفته واستكبرت عليه؟ أم ستبقى على حالها من القسوة المفرطة في موضع العاطفة؟ وما سيكون من أمر سحر إن لقيتْها؟ أتسألها عما تعرف من ماضيه؟ أم ستذهب عابسةً تتلمّظ في وجه محبوبة حبيبها السابقة؟!

وأخذته رعشة الانتصار:

– لذيذ جدًّا أن تكون محور صراع اثنتين، اثنتان عداؤهما مبني على أنهما مادة قلبك.

ثم جلبت له لذةُ الغرور الذكوري، ومعها نشوةُ النصر لذةَ الكرى، فنام مغتبطًا.

وكان اليوم التالي حافلًا، قابله المدرّسون بالتهاني، وقابلته الإداريات كعادتهن بوجوه جافية احتلبت بعض عطفها لتستخرج التهنئة باهتة، أما «لمى» فكانت بيْنَ بين، مذبذبةً بين التودد في التهنئة وعدمه.

وفيما هو منشغل بدرسه في أحد الفصول الثانوية، قطعه عمّا كان فيه صوتُ مشاجرة في الخارج، مشاجرةُ مدرسين لا مشاجرة طلبة.

أسرع يفتح الباب، فلقي في وجهه المشهد المنتظَر: منذر بباب أحد الفصول في حالة هياج، يرفع صوته باضطراب، وأكمل في مقابله واقفًا بشموخ رزين.

لبث بضع دقائق بباب فصله، قبل أن يتأكّد أن لا مفر مِن تدخّله، وقد بدا على منذر أنه دخل في شبه غياب عن الوعي أنساه مقامه ومكانه، فراح يصرخ بكلام أثار استغراب الحاضرين جميعًا:

- أنا لا يملك أحد أن يجرؤ علي في هذا الكون كله إلا اثنان: أحدهما لم تلده أمه، والآخر طرحته ساعة ولادته، أنا السيد الذي لا يُنازَع، أنا الفارس الذي لا يُدافَع.

مكررًا ضمير المتكلم (أنا) كلازمة تتفجّر نهرًا في عقله، فينطق بها لسانه.

أسرع صاحبنا ليحجز بين الاثنين مغالبًا دهشته من هذيان منذر، وفي ذهنه شيء واحد: ينبغي ألّا أترك أكمل يستفزّ- وهو بطل رياضة الكاراتيه المميّز- لئلا يفقد أعصابه فيكز منذرًا وكزةً ربما تقضي عليه.

ففاجأه أنَّ أكمل لم يكن على عادته من الاستفزاز السريع والانفجار العجِل، بل كان يتعمّد سحب البساط من تحت قدمي خصمه بفنّية عالية، في هدوء ساخر وسخرية هادئة، جاعلًا كلَّ من يحضر المشهد يرى في منذر هائجًا أخرق، أو معتوهًا مريضًا، يتلاعب به خصمه على الحالين تلاعب الفتاة الصغيرة بدميتها القماشية القديمة قبل أن تمزّقها.

قدمت «لمى» من غرفتها، وعلى ما بينها وبين منذر من وداد لم تتمكن من تهدئته، وقدمت نادية، فلبثت ما لبثت بعيدة، دون أن تتدخل أو تفعل لتخليص منذر شيئًا.

وخلال الصياح المتبادل، تبيّن لصاحبنا السبب: منذر أراد عقاب طالب في الاستراحة فهرب منه، ولجأ إلى فصله الذي صادف أن دخله أكمل لإجراء امتحان فصلي لمادته

(الرياضة)، فتبع منذرٌ الطالبَ إلى الفصل وأراد إخراجه منه، فمنعه أكمل.

وبذا بنى أكمل موقفه على أرضية صلبة، فالقانون لا يسمح لمنذر أن يُخرج طالبًا من امتحان ليعاقبه، وعلى أن منذرًا تحدّى خصمَه بكلام صارخ موجع لا يسكت عن مثله أحد، فقد تمالك أكمل أعصابه، بل بدا أنه لم يتأثر أصلًا، فزاد هياجه، وأخرجه عن تماسكه الذي طالما تظاهر به، وقد شعر بقلة وزنه، بل بانعدامه.

آخر الأمر، قدم جمع الإداريات ومعهن «لمى»، فسحَبْن صفيّهن إلى غرفتهن وهو يتمطّى ناظرًا باستعلاء إلى أكمل، وإلى الحاضرين، شاعرًا أنه كسب الجولة، وأخرج ما في جعبته ثائرًا لنفسه، فيما لبث صاحبنا مع أكمل، فابتدره:

- رهيب أنت! لقد زلزلته، كيف تركته يوغل كلّ هذا في الإساءة دون أن تستثار فتناله بلكمة أو تشتمه؟!

فابتسم أكمل ساخرًا:

- قد أفعل هذا مع مَن يستحق، أما هذا التافه فيكفيني أن أعرّيه وأنزع ورقة التوت الهشة التي حسب نفسه طويلًا يستر بها عورتَه، بل عوراته المتجمعة فوق بعضها، لا أحسب عاقلًا من بعد اليوم رأى ما فعل سيعامله إلا معاملة مجنون أو مريض نفسيًّا.

- أفلا تخشى أن تسعى نادية ومن معها في أذيتك؟

- لا أخشى، فالدلائل كلها عليه، وأنا لم أتعدّ القانون قيد أنملة، بل تركته يتعداه هو، ويبدأ بالصراخ كما توقعت، ليكون المذنبَ في هذه أيضًا، فإن يتخذن أي إجراء لمضرّتي؛ فسينقلب عليهن لا علي.

ربت صاحبنا على ظهره، وهو يقول:

- كنت أحسبك سريعَ الغضب بعيدًا عن التفكير المنظّم، فإذا أنت نقيض ذلك، خدعتنا طويلًا يا عم أكمل.

فردَّ ببسمة مملوءة طيبة تملّكت حنايا وجهه الأشقر ذي الملامح القفقاسية، فيما صاحبنا يمعن النظر في جسده المكتنز بالعضلات، المتناسقة أعضاؤه حتى لا تكاد تبدو فيها ذرة شحم، مقارنًا إياه بجسد منذر الضاوي:

- لو وكزه لقضى عليه، فكيف به إن لكمه أو صوّب إليه إحدى ضربات الكاراتيه، إذًا.. لكنا رأينا منظرًا لا ينسى، لن تغفله مصوّرات الطلبة لأعضاء مدرس الأنشطة وهي تتهتك لتغدو كومة من عظام.

ولم يستطع منع بسمة السخرية من الوصول إلى فيه وهو يتجه إلى الفصل ليتم الحصة.

بعد زمن غير طويل، لفته مشهد نادية تأتيه في الفصل ضاحكة، وهي تقول:

- قسمًا بالله، إن تصرفاتك الغريبة تاريخية، تستحق أن تسمَّى بها الأيام.

فحرَّك رأسه في استغراب من كلامها لتتابع:

- أتعلم أن الطلبة الذين هربوا من حصتك تشاجروا مع طلبة آخرين، ثم ولّوا هاربين من المدرسة كلها؟.

- من حصتي؟!

التفت إلى طلبة الفصل يسألهم، فأجابوه أن بعض زملائهم لاذوا بالفرار خلال انشغاله بالمشاجرة، فالتفت إلى نادية:

- آه، ربما استغلوا فرصة المشاجرة وسعيي في حلها.

- سعيك في حلها!! وما شأنك أنت بها؟!

- ما شأني!!

أجابها في غاية الاستنكار، وقد ملكته الدهشة من تصريحها بعدم مبالاتها بمصير منذر.

- نعم، ما شأنك؟

أجابها بحزم:

- أكنت تريدين أن يمسكا بتلابيب بعضهما ونبقى بعيدين؟

– حين يريدان ذلك سيفعلانه ولن تحول دونه، وإن يكن فلا شأن لك به.

– لا شأن لي!!

وجد لهجته المملوءة استغرابًا واستهجانًا كافية لإشعارها بالخجل مما تقول، لكنها لم تغير سيرتها من عدم المبالاة، فيما سيطرت على ذهنه صورة التملق الرهيب الذي تستجلب به منذرًا، والفرق الهائل بينه وبين ما تصرّح به الساعة، وفي نفسه راح يردد:

– ليس غريبًا على مثلها أن تكون ذات وجهين، وربما ليس غريبًا أن لا تكترث لمصير منذر على ما تدعيه من صحبتهما، لكنّ الغريب أن تصرح به أمامي وأمام الطلبة، أإلى هذا الحد عَمِيت عليها المعاني والتبست المفاهيم!؟

وما هي إلا دقائق حتى قرع جرس الفسحة، فنزل ليلقى منذرًا في انتظاره يسأله بلهجة العاتب:

– أهكذا تتركنا في حيص بيص؟!

– حيص بيص!

– نعم، الطلبة تشاجروا مع طلبة آخرين في الساحة، ولم نعرف ما أخرجهم من فصلهم حتى اعترفوا أنهم تسللوا من فصلك، كيف تترك الفصل يا رجل؟!!

- كيف أتركه! كنت أحلّ الشجار بينك وبين أكمل؟

- كنت تحل الشجار! لم أرك قط !!

كالمطرقة على رأس صاحبنا نزلت العبارة: (لم أرك قط).

أنا الذي وقفت بينك وبينه، ولولاي لربما كنت الساعةَ في المشفى فاقدًا الوعي، لم ترنِ!!، لم ترنِ يا ابن الـ....

- لم ترنِ!! أنا الواقف بينك وبينه.. لم ترنِ!

عدّل منذر سريعًا من وجهة النقاش كأنما يداري شيئًا في نفسه، عائدًا إلى المجال الأول:

- مهما يكن من أمر، فما كان يصح أن تترك الفصل، لو تطورت المشاجرة لكانت النتائج مسؤوليتك؛ لأن الطلبة خارجون من حصتك.

برز غضب نفاد الصبر أخيرًا على صاحبنا:

- ومتى خلت الساحة من طلبة فارين من حصصهم، بل متى دخلنا فصلًا فكان طلبته كاملي العدد؟! آلآن بات كل ما يجري مسؤوليتي؛ لأنني سعيت لحل الشجار.

ودون أن يغيّر منذر فوقيتَه ذات النمط الخاص، أجاب:

- أنا أتكلم حرصًا عليك، ما كان ينبغي أن تترك الفصل مهما يكن من أمر، وما كان ينبغي أن تنشغل بالشجار عن حصتك.

صمت صاحبنا صمت اليائس المعيا الذي أدرك أن خصمه لن يتراجع لو اجتمعت دلائل الدنيا كلها عليه، تاركًا نظراته إلى منذر تتكلم بامتلائها اشمئزازًا واحتقارًا، ناقلةً كلامه:

- مخطئ، نعم مخطئ جدًّا، ما كان ينبغي لي أن أخشى عليك ولا أن أحول بينه وبينك، ألا ليتني تركتك بين نابيه يطحنك طحنًا ويجعلك هزأة المدرسة بل المدارس كلها، قاتلك الله أيها النذل، تالله لم يغلُ أكمل فيما قال فيك، بل لعله لم يفِكَ بعض حقك.

- ١١ -

كان هاني مدرس الرياضيات الثلاثيني أوثق من في المدرسة عروةً بصاحبنا، ومعرفتهما معقودة منذ درّسا معًا من قبل في مدرسة أخرى، ثم ما فتئ يدعوه إلى الانتقال إلى مدرسته الجديدة ليتزاملا مرة أخرى، فلم يبدُ عجيبًا لصاحبنا من بعد أن يلحظ الفروق بين ما صوّره هاني في كلامه من حال المدرسة الحسن وبين الواقع، إذ كان يعرف كيف يفكر صديقه أو كيف لا يفكر، وكيف ينظر بما يعدّه ضيق أفق عجيبًا وغير لائق بمن في مثل سنّه- وقد قارب الخامسة والثلاثين- إلى ما حوله، وكيف تشغله اهتماماته البسيطة بالدروس الخصوصية، وغشيان مطاعم الوجبات السريعة عن أي هدف غيرها.

وقبيل نهاية العام، تناهت إلى هاني فرصة عمل في الخارج، فأعد العدّة وحزم حقائبه، لكنه لم يمضِ قبل أن يختم منهاج طلبته، ويحضّر أسئلة امتحانهم، ثم يسلمها إلى نادية، لتركنها ببساطة إلى جانب الحاسوب في غرفة الإدارة، المطروقة كل

يوم بعشرات الداخلين !!

حتى إذا ما أزف موعد إعدادها للطبع، تفقدت كراسة الأسئلة فلم تجدها!

وحارت ودارت، وحارت معها صديقاتها ودُرْن، دون أن يهتدين إلى سبيل، لكنّ أيًّا منهن لم تلقِ باللوم على صديقتها والهيئة التي تركت عليها الكراسة، بل سارعن إلى التفكير في مَن يلقين عليه المسؤولية.

– ألا تذكرين أن بعضهم قال لك: إن الامتحانات ستفشل؟ لا تكلّفي نفسك عبئًا زائدًا، الأسئلة ولا بد مسروقة.

صادفت العبارة– سريعًا– هوًى لدى نادية، فألقت بنظرها إلى صاحبنا الذي تصادف وجوده في الغرفة قائلة:

– لقد قال لي أكمل مرة إن الامتحانات ستفشل، وقول كهذا لا يصدر من دون مسوّغات ولا يقال دونما غاية، وعليه أن يتحمل تبعاته، وأنا أتهمه بسرقة ورقة الأسئلة.

فاضطرب، وراح ينظر فيها نظرة تحمل معاني عديدة، فيما يتردد في صدره القول:

– ألأنه عرّى الواقع، ووصف ما آلت إليه المدرسة في ظل تصريفك شؤونها حمّلتِه مسؤولية ضياع الأسئلة، أإلى هذا

الدرك انحطّ بك عقلُك وانحطت نفسك؟!

وعقد العزم على تنبيه أكمل إلى ما قيل وإلى ما ينوين فعله، بيد أنه تأنَّى حتى يصدرن قرارًا في شأن وضع الأسئلة الجديدة، خشية أن يُدِرْن مؤامرة جديدة بشخص آخر، واقترح عليهن أن يتواصلن مع هاني، أو يتواصل معه عبر إحدى وسائط الشابكة، فلم ترقهن الفكرة كثيرًا:

- أنا أتواصل به يوميًّا، إن شئت- موجهًا خطابه إلى نادية- أكلمه اليوم، وآتيك بالنبأ مساءً.

- أريد أن أطمئن إلى أن الأسئلة في حجري الليلة، لا أريد تسويفًا.

- فما ترين إذًا؟ هل من حلّ آخر؟

- ينبغي أن نكلمه من هنا، من المدرسة الساعة.

- لكن جهاز جوالي لا يحتوي وسائط التواصل.

أطرقت ساكنة، فلاح له خوفها من أن تضطر لمكالمة هاني من جهاز جوالها، فعرف أنها تجهل أن وسائط الاتصال مجانية، فلاذ بالصمت الساخر، ثم صرّح برأي جديد:

- هناك بعض المدرسين يحملون في جوالاتهم رقم هاني، وهو موجود لديهم في وسائل التواصل الاجتماعي كذلك،

دعيهم يتصلون به من هنا.

- كمن؟

- كسالم ومحمد، هذان من أذكر.

ولم يطل الأمر كثيرًا بحالة القلق، قدم سالم فكلّم «هاني» عبر وسيلة (الوتس آب)، وأعلمه بضرورة أن يعد أسئلة جديدة يرسلها عبر بريد الشابكة، وإذ اطمأن صاحبنا إلى الحلقة الأولى من القضية، انطلق يحثّ خطاه نحو أكمل لينبهه إلى ما يردن به من سوء.

دخل عليه حجرته فوجده مع مدرس آخر، ففكر دقيقة في ما تكون ردة فعله، ثم لقي الحل في أن يكلِّم المدرس الذي معه، ويتركه يخبره.

طلب المدرّسَ إلى خارج الغرفة، وأعلمه بما دار، ثم انصرف إلى بعض شأنه شاعرًا أن ضميره قد حقّق ما كان يبغي. فما مرت إلا دقائق.. حتى ارتجت المدرسة لصوت هائل من الطابق السفلي، وارتجّ معها قلب صاحبنا، فما كان ذاك إلا صوت أكمل غاضبًا..

- قد وقع ما كنت أخشاه.

هرع إلى الطابق السفلي، نازلًا درجات سلم المدرسة والفِكر تختلط في ذهنه، ليجد أكمل في منتصف ممر الحجرات

الإدارية يسدّه بجسده القوي، باديًا وهو يلوّح بيديه وقد برزت عضلاته كوحش فرّ من أحد كتب الأساطير، وفي مواجهته المدرس الذي كان معه يهدّئه، وعلى الطرف الآخر برزت نادية وحدها على باب غرفتها غير قادرة على الكلام، دون أن تقف معها أيّ من صديقاتها في مواجهة من يهاجمهن صارخًا:

– من شاء أن يضرّني فليبحث عن وسيلة أكثر شرفًا، ومن له عليّ إثبات فليأتني به لأضعه تحت حذائي، تلك عادتكم، وليس غريبًا عنكم أن تؤذوا الأبرياء.

هال صاحبَنا وهو يحث الخطى إلى المشهد أنه وقع ضحية انفعال أكمل، كما كان يخشى، وذلك سيجعله في مرمى سهام نادية وصديقاتها؛ وبذا، فإنه في سعيه لحماية صديقه، قد فتح بوابات الجحيم على نفسه.

اقترب من أكمل يهدئه فلم يجده في حاجة إلى تهدئة، وإذا هو كما كان يوم شجاره مع منذر، متزن هادئ يعرف ما يفعل وما يقول ويقصده، ويتعمد إيصال رسالة بعينها إلى مَن يواجههم، لكن صاحبنا في طريق عودته إلى البيت عقد العزم على ألّا يأتي المدرسة حتى يوم الامتحان الأول، وقد فرغت من طلابها للعطلة الدراسية التي تسبق الامتحانات، فلا حاجة موجبة للمجيء، ولا شك أن نادية وصديقاتها

سيدبرن له أمرًا إن جاء غدًا أو بعد غد، فليترك النفوس حتى تهدأ إلى أول أيام الامتحان بعد أسبوع، وإن يكن في شك أنهن سينسين ما كان منه خلال هذه المدة القصيرة.

مساءً، كلّم أكمل من برنامج المحادثة في الفيسبوك:

– يا رجل، سامحك الله، ليتك أجّلت ما فعلت إلى يوم آخر، قد أوقعتني الآن في مصيدتهن، فلا أحد غيري يمكن أن ينقل النبأ إليك.

– اطمئن، هنّ على خبثهن وسيطرة الشر على أنفسهن ضعيفات الحال، جبانات عند المواجهة، لذا يلجأن إلى الالتفات والالتواءات، فلا يقدّمن ولا يؤخّرن.

– والله ما كنت أحسب أن يتمرّغن في وحْل القذارة حتى هذا الدَّرك، حتى يدبّرن التهم لكل قاصٍ ودانٍ.

– إذًا، فأنت لا تعرف عنهن شيئًا، ذاك دأبهن دومًا، كلما أخطأن لم يفكرن لحظة في تصحيح الخطأ، بله أن يفكرن في تحمل مسؤوليته، ولا يذهب تفكيرهن لخسّته إلا إلى شخص يحمّلونه مغبة إهمالهن.

– لكنك كنت على علاقة بهن إلى وقت قريب.

– كنت أحاول ذلك لما فيه مصلحة المدرسة، لكنّ منذرًا هذا منذ أتى أصرّ أن يفرض نفسه على كل صغيرة وكبيرة لأنه

مترَع بعقدة النقص، ولم يحرض علي وحدي، بل كما ذكرت لك سابقًا على أغلب المدرسين.

- أنت ولا بد تعرف أكثر مني لطبيعة موقعك.

- وأعاني أكثر منك، لأني أعرف أكثر، أولئك ناكرون للمعروف، لا يجد الفضل ولا رد الجميل إلى نفوسهم طريقًا.

وتقضّى الأسبوع من بعد بصاحبنا وهو لا يقرب المدرسة، فارغًا لأعمال أخرى ولعلاقته بسحر، التي كلما تعمقت لاحت في سمائها الغيوم الدواكي.

الفراغ والملل سيدَا الموقف كلما جاء بيتها، يحييه أهلها بترحاب مقتضب، ثم يسرعون فيُدخلونه وإياها غرفة استقبال الزوار، ويغلقون الباب دونهما، معلنين أن غاية الزيارة في مفهومهم لا تعدو هذا، فتجلس «سحر» إليه صامتة تتكلف إغراءه والتقرب إليه بلغة الجسد، فيحاول أن يكلمها بلغة العقل تارة، وبلغة القلب طورًا، فلا يلقى ردًّا، بل يفجؤه أنها لا تكاد تفقه عنه حديثًا، وإذا ما سألها عن سبب صمتها كان ردها واحدًا، كأنما حفظته في مدرسة ابتدائية:

- ليس لدي شيء أقوله، لا شيء في حياتي يقال غير ما تعرف، ولا أعرف أشياء عن غيري تستحق أن أحدثك بها.

فإذا ما حاول الخروج إلى إطار أهلها يستعين بهم، جلست

الأم إليه كما ابنتها، وإذا ما سألها عن صمتها أجابت:

- ليس في حياتي أحداث أرويها، فمنذ تزوجت أغلقت باب بيتي دون العالم، فلم أعرف سواه ولا أريد أن أعرف، وليس في بيتي أشياء لا تعرفها، ففيم الكلام؟

أخذ غول الضيق يطوقه، يستولي على خناقه، فيستعظم الكارثة التي لقي نفسه على حين غرة واقعًا في مهواتها، وراح في قلبه الشيئان يتنازعان: ما أراه شرٌّ لا يُسكَت عنه ولا يمكن الاستمرار في ظله، لكنني لا أستطيع أن أفشي شيئًا منه لأنها أسرار بيت حميّ الذين أنزل بينهم، وحالي كذلك لا بد لها من معين أو معالج، فإلى من ألجأ؟!

أيُعقل أني بإسراعي في الفرح بالإعجاب ألقيت نفسي في التهلكة؟ أأستطيب أن يكون صبحي خالًا لأولادي، أن أرى أمه جدة لهم، يأتونها لهفَى يطلبون النصيحة فتنتفض في وجوههم:

- لا نصيحة لكم لدي، لا أعرف من الدنيا غير بيتي.

أوَ تستطيب نفسي أن تكون سحر أمًّا لأولادي؟!!، أفيها نفَس الأم الحنون الواعية؟!

فيباغته شيطان الغرور الذكوري:

– أتنسى حبها!؟ عباراتها الناضحة عشقًا، كلماتها المملوءة حبًّا وعطفًا وحدبًا، كل خلاف يذيبه الحب، كل فرق يصهره الوفاق.

لكنه كلما فرّ من الصراع لقي نفسه تجدّده، فلا مفرّ من واقع يضرب على حياته بأطنابه، يمسك بتلابيب نفسه بحقيقته، فلا يكاد يلقى ملاذًا من بعد إلا في النوم، الذي يجد فيه– منذ صغره– خير حلّ لمشكلاته، فكم مسألةٍ حسابية، وكم شرح قصيدة، وكم إعرابِ لفظة استعصى عليه أيام الدراسة فألجأه إلى وسادته، وبعد غَفوة طالت أو قصرت صحا ليلقى الحل يتلألأ في ذهنه، كأنما مسحت على رأسه يدٌ سحرية وهو نائم.

لكنه كلما غفا بحثًا عن حل لمشكلته الجديدة، جاءه الكابوس الذي قصد المنام هربًا منه، كابوس مستقبله في ظل بيت حميّه، فاستبدّ به القلق من جديد، وتطاير الأمل.

- ١٢ -

عامت المدرسة على بحرٍ من الفوضى صبيحة أول أيام الامتحان، كما عادتها في مثلِ هذا اليوم الذي يراه أهلها يوم عذاب تاريخي، يختلط فيه الحابل بالنابل: فيضيع الطلبة بين قاعاتهم، ويضطرب المدرسون في مراقباتهم، ويحاول الإداريون ترقيع ما تمزّق فيفشلون ويستفَزّون، وينقسم الجميع بين غير مبالٍ مستهتر، وحريص متشنج.

لكن المزية لصاحبنا، أن اليوم الأول هذه المرة وافق موعد امتحان مادته لطلبة الصف الثاني الثانوي، مَن يسمّون شياطين المدرسة وعلى أنه لم يغيّر أسلوبه المعتاد، فظلّ في قاعته التي يراقب فيها منتظرًا أن ينتصف وقت الامتحان أو يقارب الانتصاف، فيمضي إلى قاعات طلبته ينظر فيما استعصى عليهم فهمه من أسئلته. فقد فاجأه ولمّا يمضِ على بدء الامتحان إلا قليل، أن أتاه أحد زملائه قائلًا:

– الطلبة يريدونك يا أستاذ سريعًا، يزعمون أن الموضوع المطلوب كنت قد حذفتَه.

غلت المراجل في دماغه، فانطلق يسعى نحو القاعات التي تضم طلبته ليلقى (أسماء) خارجةً من إحداها، وعلامات الانزعاج طاغية على وجهها، تقول له:

- انظر في ما يقولون، فهم هائجون هياجًا غير طبيعي.

دخل القاعة من ورائها، فلقي المراقبة مدرّسة تصغره في السن لمادته نفسها، يعرفها قوية الشخصية متديّنة، وفي القاعة أكثر الطلبة شغبًا، ما إن رأوه حتى قاموا قومة رجل واحد :

- هذا الموضوع الذي حذفته يا أستاذ.

فانتفض في وجوههم بقسوة:

- أيها الكذبة، متى حذفته؟!!، إن تكن أدمغتكم الخرقاء قد فهمت الكلام كذا وأنا لم أقله، فكيف ستتسع لفهم مقرراتكم واستيعابها!!

وغادر القاعة بنزق بعد جدال عصبي معهم، متأكدًا أنهم لن يكفّوا عن الهيجان بعد مغادرته، بل سيصبون تلالَ انفعالهم على مراقبتهم، ومضى إلى قاعة أخرى تضم بقية طلبته، فلقي مراقبها صاحبه سالمًا، فتلقفوه الطلبة هناك بمثل ما تلقّفه طلبة القاعة الأولى، حتى انفعل سالم لانفعالهم، تاركًا صاحبنا في حرج من الحال التي بات وزملاؤه عليها.

اختلطت الأمور في رأسه، وضاعف قلقَه أن حظه العاثر أوقعه في براثن نادية وصديقاتها اللائي - ولا بد- ينتظرن فرصة

كهذه ليُنزلن به ما يستطعن من شرّ بعد حادثة أكمل، وها قد أتت الفرصة الموعودة، أفلنْ يعضضن عليها بالنواجذ؟!

وما كان هياج الطلبة العظيم بسبب أسئلتهم مستَنكرًا، فموضوع النص الأدبي له عشر درجات من أربعين هي مجمل درجات الامتحان، فهو مربط الفرس في الأسئلة. وإذ جرى ما جرى، عادت الذكرى بصاحبنا إلى يوم كان في الفصل، فقال للطلبة:

– الموضوع الثاني كبير، وعليه يدور أكثر المنهاج، فاحتمال السؤال عنه في الامتحان أكبر من احتمال السؤال عن غيره.

فهاجو وماجوا فرحًا، وعلى أنه اجتهد من بعد في توضيح مراده مما قاله، فقد بنى الطلبة عليه أحلامًا عريضات، تهاوت لحظة أمسكوا بأيديهم ورقة الأسئلة.

وكعاشق تملأ قلبه محبوبتان، طفق يسعى مشتت الصدر ما بين القاعتين اللتين تضمان طلبته، والقاعة التي ينبغي له أن يراقب فيها، غيرَ دارٍ إلى أي جانبيه يميل، ساخطًا على الطلبة وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وقلقًا مما ستؤول إليه الأمور.

وإذ خشي مما ستدبر له نادية وزمرتها، فقد أخذ يشجّع نفسه:

– إن أتيتني بشيء فسأنتفض عليهن كما انتفض أكمل..... لكنهن لا يواجهن إن أردن الأذية مواجهة جريئة، وما كل عملهن إلا في الخفاء والمزاريب المظلمة.

حاول تهدئة الطلبة ما وسعه، ورأى الشرر يتطاير من أعين مراقبي القاعات، حتى إن سالمًا– على ما بينه وبينه من صحبة– كلّمه أمام الطلبة بشدّة:

– لا تدخل مرة أخرى القاعة رجاءً، فهم يثورون إذا ما رأوك، ولا أكاد أملك ضبطهم من بعد.

فخرج يجرُّ أذيال الإحراج.

ثم لمعت في ذهنه فكرة، فأسرع ينزل أدراج السلالم نحو غرفة نادية يخبرها بها:

– ما رأيكِ لو عدّلت سؤال الموضوع الأدبي ليغدو اختياريًّا، فأمكّن الطلبة من كتابة الموضوع الآخر.

فسارعت إلى الردّ بخبث:

– أترون؟ (موجهة الخطاب إلى مَن معها وفيهم منذر) قد أنّبه ضميره الساعة، فأتى يحاول إصلاح ما أوكت يداه.

فرد بنفاد صبر واحتقان، وقد شعر بتحطم زورق سموّه على صخرة ضيق أفقها:

– قد علمت من قبل أن ظنك لن يخرج يومًا عن دائرة

السوء، هذا جزائي أن أتيت راجيًا التخفيف عنك.

وأدار لها ظهره ماضيًا في صمت، فارضًا على الجو هيبة القوة.

بعد ساعتين ونصف بلغت القلوب فيها الحناجر، انتهى الامتحان، ومضى صاحبنا إلى غرفة «لمى» ليستلم أوراق إجابات مادته كما هي العادة من موجهة الفصل.

فدخلت عليه المدرسة مراقبة القاعة الأولى التي ضمت طلبته، وباغتته بأن أشرعت ذراعيها على طريقة النسوة المغرقات في العامية قائلة:

- بعد اليوم لا مجال.. قطيعة أبدية مع الأستاذ عبدالرحمن.

نظر إليها باستغراب:

- لِمَ! عم تتكلمين؟

فردَّت بضيق:

- الطلبة لدي أجمعوا على أنك قد حذفت السؤال، وبعضهم لم يكن بينه وبين البكاء إلا غشاء شفيف من حياء قائلين: والله إنه قد حذفه، ثم أنكر.. وأنكر.. وأنكر.

ردّ بثقة:

- في إمكاني الساعة أن آتيك بالطلبة المجدِّين فينكروا كل.. كلَّ ما قاله أولئك، لم أحذف شيئًا، وإن ألمحت إلى أهمية الموضوع الآخر.

- أفيعقل يا أستاذ أن يجمعوا على هذا القول؟

- قلت لك إنني ألمحت إلى أهمية الموضوع الآخر، لكنّ هذا لا يعني بحال أني حذفت هذا، الكلمة الوحيدة التي قلتها: إن الموضوع الآخر غالبًا هو ما سيُطلب في الامتحان.

فتدخلت «لمى» منفعلة انفعال المستكبر كعادتها:

- لكن هذا لا يجوز، ولا يصح بحال.

فردّ ببرود:

- ربما لا يجوز، لكنه لا يعني أني حذفت، ولا أني ألمحت إلماحًا إلى الحذف.

فعادت المدرّسة إلى جداله:

- لقد قام الطلبة لدي قومة رجل واحد، كتلك التي رأيتها ساعةَ دخلت عليهم ولم يقعدوا، وانتفاضتهم هذه توقع الريبة في القلب، وقد تتسبب لك بمشاكل إن لجئوا إلى الشكاوى.

فلم يغيّر من ثقته التي آلت استعلاءً:

- أنا أعرف ما أفعل ومدرك ما جرى، لم أفعل ما أؤاخَذ عليه حقيقة، هم كعادتهم يكذبون ليتنصلوا من العمل

والدراسة، وإن يكونوا قد اتفقوا أن يهيجوا الساعة فلأن مقدار الغباء لديهم عجيب، ومن سوء حظك أن عُيّنت مراقبة لأسوأ طلبة الشعبة التي أدرّسها.

ففاجأه تدخل سالم بنزق، وقد كان يجلس مقابله:

- لا يصح ما فعلت يا أستاذ بأي حال.

فأدهشه وأربكه، إذ لم يتوقع أن يؤول سالم على ما بينهما من مودة؛ خصماً، في هذه اللحظة التي يتربص فيها المتربصون، وتقدر كلمة واحدة على قلب الموازين، وأمام من!! أمام المدرّسة الغاضبة، وأمام منذر ولمى.

فأجابه بذهول من أتته الطعنة من حيث لم يحتسب:

- عم تتكلم؟

- ما كان يصح أن تقول للطلبة داخل القاعة إنك لم تطلع على أسئلة امتحانهم قبل أن تصير إلى أيديهم.

فانتفضت المدرّسة وانتعشت آمالها، بعدما فقدت كل أمل للنصر على صاحبنا وقد علا عليها بحججه وقوة ثقته، فانطلقت توجّه خطابها إلى سالم منقذها:

- أهكذا قال داخل القاعة؟

فتابع سالم انتفاضته التي اشتدّت:

- داخل القاعة، فهاج كل مَن فيها وماجوا، وما هدؤوا

من بعد.

فرسمتْ علامات الاستياء المطلق على وجهها، ثم انتفضت تخاطب سالمًا، حليفها الذي وقعت عليه على حين غرّة:

– هذه الأفعال لا تجوز، ولا يمكن ولا يصحّ للمدرّس أن يوقع نفسه في زلّة أمام طلابه تجلب مثل ما حدث، فهم ينتظرون الزلّات ليكبّروها ويضخّموها، لا يصح للأستاذ أن يقع في براثن ألسنة طلبته.. لا يصح بحال.

فأشاح عنها صاحبنا بوجهه، وقد غشيت وجهه علامات الغيظ من قولها، مع اليأس من مخاطبتها، فيما أحس سالم الحرجَ وقد وجدها تستغل عبارته لتعزّز انتفاضتها، فراح يرنو إلى صاحبنا ببسمة خجل.

ثم قام كلاهما، فما أسرع أن التفت إليه منذر، فحسب صاحبنا أنه إنما يريد التخفيف عنه، كما المعتاد في حال كهذه، فما راعه إلا قوله:

– بذا نعود إلى ما كنّا قلناه يومًا: إنك صاحب مشاكل.

وقبل أن يصحو من مفاجأته من قوله، وجده يتابع:

– مشاكلك عفوية، قائدك فيها طيبة قلبك الزائدة، كان من حقك أن تطّلع على الأسئلة، فلمَ لمْ تفعل؟

فتحرّك رادًّا برزانته المعتادة:

- ليست قضية طيبة قلب، الذي حصل أن....

فقاطعه منذر:

- ثقة عمياء منك بمن وضعها..

-الذي حصل أن..

- تسليم له فيما يفعل..

- لا.. لا يا عزيزي.. الذي حصل أنه تأخر في وضعها، وفي آخر يوم قدمت فيه المدرسة لم يكن قد وضعها بعد.

- لكن ما كان ينبغي لك أن تتركه يضعها دون أن تطّلع عليها، ما أدراك أنه يريد توريطك كما حصل؟.

فانفعل صاحبنا بعض الانفعال، وقد لاح له الاتهام والخبث معًا في كلام منذر:

- توريطي! كأنك تريد أن تقول إنني حذفت الموضوع الأدبي حقًّا، رغم كل ما أكدت به أنني لم أحذفه.

فاستمر منذر في كلامه دون مبالاة بالرد، كأنْ لم يسمع صاحبَنا حقًّا، أو كأنه غائب عن الوعي تسيّره قوة ما في داخله:

- الأسئلة في الأصل لا يجوز أن ينهض بكتابتها شخصٌ واحد من المدرسين، وله شريكان في تدريس المادة، بل ينبغي

أن يجتمعوا على وضعها.

فتدخلت عند هذه اللحظة «لمى» بفوقيتها المعهودة:

- قد أتت أسماء ومحمد يوم الأحد، فاجتمعا واتفقا على الأسئلة التي وُضعت.

قرر صاحبنا قطع الطريق عليها قبل أن توغل في اتهام الآخرين، فقال- وبسمة التخفيف من شأن الأمر تشغل شفتيه-:

- لكنني لم آت يوم الأحد، هذا هو الموضوع ببساطة.

فعاد منذر سيرته الأولى:

- ما كان يصح أن تنقطع عن الحضور قبل أن تطمئن إلى حال أسئلة الامتحان، لكن كما قلت لك إن طيبة قلبك الطافحة وثقتك المبالغ فيها بالناس تلحقان بك الضرر.

فابتسم صاحبنا بيقين رادًّا:

- ليست قضية طيب قلب، هنالك أسباب عدة فلا تفرض على الواقع ما تراه.

فتحركت «لمى» موجّهة خطابها إلى منذر:

- أنا أقول لك: تلك عادته في طلب الراحة الزائدة، قد أتاه

من يحمل عنه عبء وضع الأسئلة، فلمَ يزعج نفسه بشأنها؟

فتبسّم صاحبنا ضاحكًا:

- قد يكون هذا السبب!!

ردت بكبريائها المعهود:

- ليس (قد)، بل هو التأكيد والتأكيد المطلق.

فلم يعجبه ردها، ورأى فيه ملمح الجور عليه الذي اعتادته في أيامها الأخيرة، لكنه تغاضى عنه عادًّا إياه من مزاحها الثقيل وأسلوبها الفجّ .

ثم صمتت قليلًا، وشكّ صاحبنا أنه لمح غمزات ولمزات بينها وبين منذر، لتندفع قائلة:

- لكنْ على ذلك، فهناك طيبة زائدة لا تنكر لديك.

وردًّا على نظراته المتسائلة تابعت:

- أنا حين أجد شخصًا لا يرغب بي ولا يريدني؛ فإنني أستعلي عليه فوق استعلائه، لا أكاد أنظر فيه نظرًا، ولا آتيه ولا أتقرّب منه.

فردّ صاحبنا بثقته العنيدة:

- وأنا كذلك بطبيعة الحال.

فردّت باستكبار:

- لا، أنت لست كذلك.

فتمالك نفسه، وردَّ بثقة:

- إن يكن شيء مما تقولين فلأني لا أعرف أن هذا الشخص لا يرغب بي.

فاسترسلت بثقة ودون تردد أو تريّث، كأنما تتلو مزمورًا داوديًّا، أو تقرأ فصلًا من كتاب حكمة عتيق:

- ولِمَ تورّط نفسك أصلًا في علاقات يحتمل أن أصحابها لا يريدونك، وما شأنك بالناس لتزيد من علاقتك بهم؟، فتجرّئهم أن يسيئوا إليك.

وجدها قد سرحت بعيدًا، ودخلت في غير المقبول عرفًا وعقلا، ولثقته أن مثل هذا لا يرتضيه الآخرون، أو لا يرتضون التصريح به على الأقل؛ فقد نظر مستغربًا في منذر المرتدي عادةً لبوس المستند إلى الأخلاق والقيم، قائلًا له بنظراته المستغربة: ما هذا الكلام العجيب المشين؟!!

فما أسرع أن ردّ عليه مبالغًا في إشاراته وحركات يديه على صورةٍ بالغة الاضطراب:

- كما تقول لك، الناس المفسدون كثر، وكثير منهم يظهرون غير ما يبطنون، وأنت لا تكاد تدرك من أمرهم شيئًا.

فردَّ صاحبنا بثقة سمْحة:

– ومَن قال لكما إنني لا أدرك ما يفعلون أو يبيّتون، أنا من أدرى الناس بما تنطوي عليه نفوس الآخرين و....

قبل أن يكمل، عاد منذر إلى مقاطعته:

– لكنك على ذلك لا تعاملهم كما ينبغي.. أي كما يستحقون.

نظر فيه صاحبنا مستغربًا جرأته في الكشف عن آرائه، التي تناقض ما يزعمه من اتكاء على القيم والأخلاق.

فتابع منذر، وقد لحظ وجومه:

– معذرة يا أستاذ عبد الرحمن، فنحن نكلمك لأننا نراك على أعتاب مرحلة جديدة– مشيرًا إلى الخطبة– لذا نأتيك بما نراه من نصائح واجبة.

غلَت نظرات صاحبنا إذ لمس في كلمة منذر تدخلًا لا يقبل بمثله في شؤونه، فبأي حق يكلمه منذر بهذا، وبأي حق يأتي على ذكر الزواج كأنما يدخل فيما بينه وبين زوجه المستقبلية ويحرّضه عليها، وما مكانته التي يحسب نفسه عليها، لتجرّئه على مثل هذا!؟

صمت على ضغينة مؤقتًا، وقد اتضحت له الأدوار موزّعة، فكلما قام لأحد الاثنين نهض إليه الآخر، ليمنعاه باجتماعهما من درئهما، راحت «لمى» في نوبتها من الكلام، تطلق آراءها

الاجتماعية الغريبة على شكل وصايا مستفزة: كيف ينبغي للإنسان أن يجانب الآخرين، وكيف ينبغي له أن يحمل أفعالهم على أسوأ المحامل؟ وصاحبنا صامت صمت الفجاءة أمام سيل الآراء الهائل المفاجئ الذي جاءه على حين غرّة، فكشف له عن عوارٍ وقبح عجيبين في نفسي مَن كان يحسبها أصدقاء، مع إصرار وجرأة في التصريح بما هما عليه كأنه الحق الذي لا حقّ غيره، فغدا من انهيال كلّ ذلك على ساحة عقله مذهولًا أو كالمذهول.

وإذْ لمحت في عينيه الإنكار، تعمّدت «لمى» إحراجه وفرض مقولاتها عليه فرضًا:

- أنا أعرف ما أقول لك، فأنا أكبر منك!!

وقبل أن ينهض بالردّ عليها، فاجأه تعليق منذر متوجهًا إليها باستجداء وتملّق:

- عمرًا وقدْرًا.

فكأنما ألقى بصاحبنا في مغلاة تمور بالمُهْل، وقد لمس في الكلمة من الإهانة ما ينوء بحمله عقله وجسده، لكنه من فرط غضبته وشعوره بقسوتها؛ أصابه الجمود فعجز عن القيام وكَيْل الصفعات واللكمات لمنذر كما كان يرغب، ثم هاله أن «لمى» لم تتحرك رافضة هذه الإساءة التي تجاوزت كلَّ حد مقبول، على أن الحجرة حجرتها، وهي حسب العرف صاحبة

القرار فيها.

وإن يكن غضبه أعجزه الذي ناء بحمله عما يريد، فإن نظرته المستعرة نارًا، المملوءة شراسة، عبرت عما في داخله إذ لم يقدر على النهوض وإبراز مكنونه بجوارحه، وتجلّت فيها معاني غضبته تزأر زئيرًا، فأوصلت المراد إلى منذر عاريًا صريحًا، فلم يتحملها، وخرج من الحجرة تاركًا «لمى» وحدها في المواجهة، تقدم وتحجم في أقوالها وقد لمحت المارد يبرز من بين ثنايا صاحبنا، باحثة عن المسوّغات والأسباب علها تخفف غلواء انفعاله، جاعلةً من مذهبها في الإعراض عن الناس والقسوة وسوء الظن أكبر من مجرد طبع عارض، أو ردة فعل عاطفية، بل موقفًا من الحياة ذا أسس وأصول راسخة في نفسها، مؤجّجة نار صاحبنا من حيث أرادت تبريدها، وقد جعلت شرها مذهبًا تتمذهب به وتمنطقه وتنافح عنه، وهو ما عنى له أنها متأصلة في شرها لا تخرج أفعالها وليدة لحظتها من انفعال أو غريزة، وهو لم يعهد من أهل الشر على كثرتهم تصريحًا بما هم عليه على هذه الصورة، فكان أن أسقطت نفسها من اعتباره ومن احترامه بالكلية، وقد كانت تحسب نفسها تسوّغ موقفها.

فازداد إصرارًا على الدفاع عن مواقفه، إذ يرى المعركة لم تعد بين عبد الرحمن ولمى، بل بين القيم ونقيضها، بين الخلود والفساد، بين الخير والشر:

- إنني أفخر بمبادئي وأخلاقي، وإن يكن بعض الآخرين لا يدركون قيمة هذا الجوهر الذي أحمله بين جانحَيّ، فإنني غير مستعد ولن أكون يومًا لتغييره لأجلهم، ذلك هو الضعف عينه، أن أترك مبادئي لأن فلانًا أو علانًا آذوني، وكانوا لا يستحقون أن أعاملهم بمضمونها، فأين الثبات على المبدأ؟ وأين إيفاء المعاني حقوقها؟

لاحت معالم الارتباك على وجهها وفي لهجتها، إذ لم تحسب لديه من قوة الحجة والإيمان مثل هذا:

- لكنّ الناس أكثرهم لا يستحقون، ولا يدركون هذا الذي تقوله، وأنا...

قبل أن تكمل قاطعها بشدة:

- لا يعنيني فهمهم لما أنا عليه أو عدم فهمهم، فلم أتبنّ مبادئي وأصنع شخصيتي لأجلهم فأتركَها لأجلهم، يعنيني ما أؤمن به فحسب، وفساد الإنسان مراعاةً لفساد مَن حوله أكبر انتهاك لجميع القيم والمعاني النبيلة في الكون.

فغيّرت دفة الحديث وقد تهاوت بها أرضيتها التي كانت تحسبها صلبة، فنبذتْ عالم الأفكار إلى عالم الواقع عسى تلقى نصرها فيه:

- لقد لمحت غير مرة مشهدك وأنت تشترك في حوار

اثنين فيما بينهما، رأيت تصرفك، ورأيت ردة فعل المتحاورَين، فأدركت مقدار الإزعاج الذي تسببه للآخرين بفعلك هذا.

استغرب الحيدة عن موضوع النقاش، فما شأن هذا بما كنت تقولين؟ أم أردتِ أن إحساني الظن بالآخرين تلك إحدى دلائله، أم ضربَ على غير هدى؟

جادلها وجادلته، وقضيا وقتًا ليس بالقصير مرة أخرى، أدركتْ بعد مرور أكثره أنها رغم شدتها وقوتها لن تستطيع أن تفلّ إرادته العنيفة في إيمانه بما هو عليه. وقبل أن تخسر امتحان وقوفِ شدتها وجفائها وأفكارها الانتقامية من الكون والحياة في وجه إيمانه بالذات والمنطق، دخلت نجاح مُدَرسة التربية الدينية الحجرة، وما كان صاحبنا على علم بخيوط علاقة غريبة بدأت تنعقد بينها وبين «لمى»، ولا بأن «لمى» أشارت إليها أن تدخل لغاية في نفسها، فما شعر إلا وهي تعيد فتح الحديث من جديد بعد أن انتهت موجباته، لتندفع نجاح تزعق زعقًا كدجاجة رأت سكين ذبح بيد جزار:

– هل تعرف كم يزعج هذا الشيء؟ وكم يتسبب في غضب الآخرين ونفورهم؟

أُسقط في يده، والقضية قد خرجت من حوار الأفكار إلى حوار آخر لا يملك المقاومة فيه، حوار الوقائع والدلائل، فهاتان تملكان الدليل على ضيق الناس به، وبذا فلا يملك أن يرفض الفكرة برمتها سواء اقتنع بما تقولان أم لم يقتنع.

دام ارتباكه قريبًا من دقيقة، لمح أثناءها النشوة تتملك وجه «لمى»، فاستعاد توازنه، موقنًا أن هذه معركة، ولا يمكن له أن يرضى الهزيمة إن يعجز عن النصر، وقد رأى بعينيه الحلف ضده، ولم يجد عُسرًا في تبين سبب اشتراك نجاح فيه، ذاكرًا تصحيحه بعض أخطائها العلمية.

أما لمى، فلقد راحت تسعّر النار باستعلاء ممزوج بنشوة الانتصار:

- إذًا، فالفكرة العامة عنك في المدرسة أنك (حشري) جدًّا!!.

ضربةً قاصمةً له كانت هذه العبارة، رصاصة القسوة التي أطلقتها قاصدة تحطيمه، وتحطيم مُثُله وإسكاته إلى الأبد، كأنما تقول:

- أولئك الذين تدافع عنهم وتصرّ على تمسكك بقيمك وأخلاقك معهم، تأتي الحسن فيجعلونه قبيحًا، وتتقرّب منهم فيعدون تقربك تحشّرًا، أهؤلاء تريد إسداء المعروف وبذل الخير!؟

راح يذكر تلطفه، دماثته، حسن أخلاقه، لباقة تعامله مع مَن في المدرسة، كل ذلك ألقي وراء الظهور، كل ذلك لم يُعَر انتباهًا، وما بقي في الأذهان عنه إلا ما يسمونه (حشرية)، (حشرية) فحسب.

سُدّت عليه جميع المنافذ، فالتفت إلى نجاح علّه يلقى منها تخفيفًا في هذه اللحظة الصعبة، فلم تغير تجهّمها، وفجأة تقاطرت الذكريات السود لتعمّ الأفق أمام عينيه:

– لقد عدت إلى التدريس لسبب واحد، لكي أمحو ثقل المدرسة القديمة وأوزارها من مخيلتي وفكري، لكي أنسى ثقل تمالئهم علي واتفاقهم الرهيب على تغييري، وها أنا الساعةَ، بعد عام حسبت فيه نفسي بلغت منيتي أقعُ في شراك التجربة نفسها، لتجتمع كلتاهما على نفسي.

رباه، أي قهر هذا؟!! أي ألم!!

وعلى أن كل ذلك كان يدور في رأسه وأعماق نفسه، فإن مجلسه لم يتعدَّل، فيما تتناوب «لمى» ونجاح أدوار الكلام، وهو لا يزال يألم من ثقل ما هو فيه، لكنه كذلك نظر في قدرته على الكلام والغلبة فوجدها منتَقَصة، وهو لا يرضى إلا بنصر كامل، فليؤجل ردَّه إلى حين يقدر على هزيمة كاسحة لا تقوم لخصمه بعدها قائمة في قابل الأيام، منتظرًا أن تنتهي «لمى» عما هي فيه.

لكنها إذ وجدته فقد بعض قدرته على المحاجّة، تجاوزت الموضوع الذي صنع غلبتها مأخوذة بنشوة النصر إلى غيره، راغبة في محق صاحبنا بالكليّة.

– أيضًا، لا أنكر أنه ليس من الشر أن تقوم بعض صلة وداد بين المدرّس وطلبته، لكن لا أريدك كذلك أن تصل بها إلى أن تغدو صديقًا لهم.

والتفتت إلى نجاح تستنصرها، فراحت تهزُّ لها رأسها بتأييد أبله.

عندئذ أوتي صاحبنا عصا موسى، فانتفض، وقد ألقت به الكاف في [أريدك] التي نطقت بها «لمى» على أعتاب الجنون:

– لا.. لا.. (ورفع كفه بشدة في وجهها) قبلت منك الأولى إذ استشهدت بضيق الآخرين، أما هذه فلا ولن أقبلها، وأنا على علم ودراية بما أفعل.

فارتبكت وقد رأت ذروة النصر التي بلغتها قبل دقائق تتفتت بها، وإذا الغلبة التي حسبتها نهائية غلبة ضئيلة جزئية، لم تكن لأن صاحبنا تحجّم أو تهاوت قدرته، بل لأن الظرف فرض نفسه، وهي من حيث أرادت أن تستكمل نشوتها أعادت الليث إلى إبراز براثنه.

حاولت استعادة ما خسرته ببعض قول:

– لكنّ إيجاد علاقة مبالَغ فيها كالتي تقيمها مع طلبتك ترتد بالسوء لا محالة، فإن ....

قاطعها بشدة رافعًا كفّه مرة أخرى:

– لا.. لا.. قلت لك إني أعرف ما أفعل، ولا أقبل قولك هذا بحال، إن تكوني تفرضين شيئًا مبالَغًا فيه من الحواجز بينك وبين الطلبة؛ فإنني كذلك أفرض حواجزي التي أريد، ولم أتدخل في نمط أفعالك فلا تتدخلي في نمط أفعالي، لك دينك ولي دين.

ثبّت عينيه في عينيها بتحدّ وإصرار، مستحضرًا كل المعاني الإنسانية التي آمن بها لتقوّيه، فوجدها كلها تجتمع في هذه اللحظة لترسم هرمًا شامخًا في وجه المعاني التي تستمسك بها «لمى» مصرحة، فلمح معاني الصغار تلوح ثم تكبر في عينيها وفي وجهها، بل لاح له أن قد عراها خوف حقيقي تهاوت به قسوتها أمام حماسة إيمانه.

رأت نجاح الوجوه قد اربدّت، والمعادلة قد تغيرت، فأرادت حفظ نفسها:

– الحمد لله، الأستاذ قد تعدَّلت انفعاليته الشديدة، وتغيرت عما كان.

فسألها محافظًا على وقاره:

– الانفعالية أم هذه التي تسمونها (حشرية)؟

فاستضحكت خجلةً:

– لا، هذه الأخيرة ما تزال موجودة.

وفي أعماقه رضي بتراجعها وإن لم يكن كاملًا، بل قد غاظه إتيانها على ذكر الانفعالية، ورآه ضربًا من التحكم به، لكنه قبل ما آلت إليه بعد أن أفقدتها انتفاضته أوراق لعبها، بيد أنه استمر في شدّته، ولحظ حركات ابتسام تلقيها إلى لمى، تدل على اتفاقهما على ما كان، فزاد غضبه الداخلي الذي وجد في إظهاره الساعة استجلابًا للهزيمة وانتقاصًا من نصره، فليؤجل كل شيء إلى يوم ما، وعسى أن يكون قريبًا.

غادر من بعد الحجرة، وراح ينزل درجات السلم المدرسي وفي عقله الكثير يدور، يتساءل عن فحوى تلك الجلسة والمراد منها، ولِمَ صاغوها على هذا النحو؟

- أكانوا يبغون فقط تنبيهي إلى ما يسوء الآخرين كما ادّعوا؟ حتى الساذج المغرق في سذاجته لا يصدّق هذا الهذر، إنما أرادوا قمعي وتحجيمي والإساءة.

لكنْ لمى.. أهي صديقة حقًّا أم غير ذلك؟ أنا أقرّ أن لمنذر ونجاح دوافعهما، لكني ما زلت حائرًا أمامها، فهي تارة صديقة تدعي أنها صدوق، وطورًا.. يؤسفني ما بعد «طورًا» هذه.

وتحرّك كالعادة صوت آخر من نفسه:

- أي صديقة صدوق تلك؟!! كأنك تغفل أنها لم تستعمل رفع التكلف بينكما إلا في الإساءة إليك، أكان لها موقف

مشرّف واحد معك؟ بل أكان لها موقف واحد طبيعي؟ أم كانت دومًا ضدك سرًّا وعلانية، ساترة فعلها برفع التكلف الذي تدعيه.

- فلماذا؟!! أكنت لها غير متقرّب، محبًّا دومًا؟!!

- هههههه.. هذا السؤال ليس لها ولأمثالها.

وفي خلال طريق عودته، وهو في الحافلة سارحًا في أجواء الظهيرة الملقية أحمالها على الدرب الجبلي الواصل بين الضاحية ودمشق في جهة قاسيون، كان يسرّح النظر فيما جرى وأسبابه، ولم صاغوه مَن صاغه على هذا النحو.

وإذ خلا إلى نفسه في البيت، وجد أنه أمام نفق لا مفرّ من ولوجه، فهي ذي الوجوه قد أسفرت خالعةً براقعها، وهي ذي النفوس قد تكشّفت، وما بقي إلا أن توضع النقاط على الحروف.

- أما منذر ونجاح فأمرهما معروف وشأنهما أوهى، لكنْ لمى.. لمى التي قصمت ظهري، ولولاها ما سكتّ عنهما، وما زلت لا أفهمها: أتريدني بعيدًا أم تريدني قريبًا؟

قادت المؤامرة عليّ وفعلت بي الأفاعيل، صنعت الموقف وصاغته، وكانت ولا بد مدبّرةَ كلَّ ما كان، ولم يعدُ ذانك ممثلَين مداهنين، فليت شعري: أهي راغبة بجعلي تحت طيّ جناحها، أم راغبة بنبذي إذ وجدتْني ممَّن لا يصلحون أن يكونوا حذاءً تمتطيهم كمنذر!؟

دخلت عليه أمه الغرفة، فألفته سارحًا يوشك أن يكلّم نفسه، وكما اعتاد من إحساسها بما في صدره جاء سؤالها:

- ما الأمر؟.

سؤالًا عميقًا، سؤال المستفهِم الواثق أن وراء الأكمة ما وراءها، سؤال من لا يملك مجيبه أن يكذب عليه.

فتنهّد، ونظر فيها نظرة ذات معنى، ثم انطلق يقول:

- حدث غريب أعجز عن تفسيره، لكنني مضطرٌّ إلى فهمه لأقرر ما أفعل بعد، ولا بد أن أفعل شيئًا.

راح يحكي لها ما حصل، رابطًا إياه بغير ما موقف مع «لمى»، فصعدت الحماسة إلى رأسها، مستذكرة أن «لمى» اتصلت بالبيت مرة لبعض شأن، فحفظت رقم هاتفها في سجل الأرقام، فقامت لتتصل بها وهي تقول:

- فليكن استفهام وتوضيح، فإن فشلنا فليذهب كلٌّ في طريقه.

تركته في الحجرة يقلّب الآراء على جمر الانتظار، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تعود بوجهٍ باسم وملامح منشرحة:

- كلمتُها.

رنا إليها لهفًا منتظرًا تتمة القول، فيما اتخذت مقعدها على كرسي خشبي مستند إلى نافذة حجرته، وقد أرخى

الظلامان- ظلام الليل وظلام انقطاع الكهرباء المطوّل الذي جلبته أحداث الحرب معها- سدولهما على المكان، فخلقا جوًّا تتنازعه الشاعرية وبعض الاضطراب، وباتت الأم إذ اتخذت مجلسها، وصاحبنا جالس على سريره في جهة لا بالمقابلة ولا المجانبة، كممثلين متحاورين يسرد كلّ منهما دوره في مسرحية إغريقية.

- آه.. ما حصل؟

- اطمئن، لقد خففتْ كثيرًا من ضخامة ما جرى، وأكدت أنه لا يحمل تلك الأبعاد، وأنها فوجئت بأنك رأيته بهذا المنظار.

ردّ باستنكار:

- كل ما جرى لا يستحق أن يُرَى بهذا المنظار؟!!، ما فعلتْه وما فعله ذانك؟!!

- هي تقول إنهما مخلصان في محبتك، وما كانا إلا باغيَيْن مصلحتك.

ملأ الاحتقان وجهه، انتفخت أوداجه، فبدا من وسط ظلام ما حوله ماردًا جنيًّا من حكايات ألف ليلة وليلة.

- الأسطوانة نفسها، العبارة الملعونة نفسها، العبارة الملعونة...

في لحظة خرج بها من وعيه ومن زمنه، رفع يديه يمسك بهما رأسه، وأخذ يتلوّى محاولًا مقاومة سيل الذكريات الجارف الذي انهال عليه مرة أخرى.

وجد نفسَه مستَضعفًا في المدرسة القديمة، يتمالأ عليه مدرّسوها لخروجه عن حيّز اتفاقهم، يتفقون على تصويب سهام الإزعاج والنقد الجارح إليه مرة بعد أخرى، فلا يكاد يصحو من سهم حتى يصوَّب إليه آخر، فيحارُ.. كيف يكفهم عنه قبل أن يحار فيما هم عليه وفي جوّهم الذي خلقوه لأنفسهم.

والعبارة المنحوتة الأثرية التي طالما سوّغوا بها ما يفعلون:

- نكلمك من أجلك، من أجل مصلحتك.

طفقوا يكلّمونه بخشونة على الملأ، فإذا ما قام للمتكلّم مواجهًا نهض إليه ثانٍ وثالث، وربما رابع مدافعين عن موقف صاحبهم بحجج عجيبة يبتدعونها، فيمنعونه دومًا أن يكفَّ عن نفسه بعض أذاهم، بله أن يستردّ مكانته ويعيد لنفسه اعتبارها.

ولأن نفسه تأبى عليه الخنوع إباءً عظيمًا، فلم يكفّ يومًا عن الرد مهما بلغ التمالئ عليه، بالحركة إن لم يقدر على الكلمة، وغالبًا بهما معًا، ولأنه يأبى الاستسلام كذلك، ويعد الفرار هو الاستسلامَ عينه لا وسيلة من وسائل التكتيك؛ فلم يستجب

لمحاولات كثيرة لنقله من المدرسة تخليصًا له، ولقد تعدّدت المحاولات ممّن في مديرية التربية الذين يعرفون المدرسة وما هي عليه، ويربئون به أن يرتكس في مهواتها.

إلى أن كان ما كان.. أتت الحرب عليها، وتفرّق من كانوا يلوذون بها صانعين مملكتهم الخاصة، التي تنتظمها قوانينهم المصوغة بأيديهم، تفرقوا شذَرَ مذَر.

أفاقته رشة ماء، نظر ليلقى نفسه ما يزال في حجرته، على سريره، وفي مقابله أمه يتملكها القلق وبيدها كوب ماء:

- بني.. حبيبي.. ما لك؟

فركَ وجهه بيده، ثم أعاد النظر إليها:

- الكابوس نفسه.. المدرسة القديمة.

راحت تحرّك يديها بنفاد صبر، مستشعرة الأسى واليأس معًا:

- أعدنا إليها؟!! أما كنا تجاوزناها؟!!

فردّ بغضب وإنهاك عاقاه عن النطق السليم:

- وما أفعل إن يكن أولئك ردوني إليها رغمًا عني.

-١٣-

اتجه إلى المدرسة في اليوم التالي وفي ذهنه قرار صمّم عليه:

- أما دخوله الحجرةَ (حجرةَ لمى) فقد بات من المحرَّمات على نفسه، وأما الردّ فسيكون على مراحل.

وتعمل كلمات أمه عملها في دماغه:

- كانت متجاوبة معي، معترفةً بلطفك ومحاسنك، مدافعةً عن منذر ونجاح.

ثم نصيحتها التي بدّلت لهجتها عند قولها تبديل الحريص:

- هي محبة صادقة، فلا تخسرها.

ويعمل عمله ما دخل الشابكة، فلقيه مصادفةً على بعض صفحات الفيس بوك من كلام بعض الطلبة:

- (لمى).. الكلبة الحسناء.. أحقر مخلوق قد تراه في حياتك، فلا يغرنّكم منها جمالها، فتحته يكمن جبل من العقد وركام من التشوّه، لن تلقى لهما مثيلًا.

كلمات خطّها طالب في الثاني الثانوي، من شعبته التي يدرّسها، من أولئك الذين قاموا أمس خلال الامتحان، لم يذمّه بل ذمّ لمى، طالب لم يُعهَد من أرباب التفوق أو المعرفة بأساليب الكلام يصوغ عبارة كهذه، فمن تكون التي ألّبت كل هذا في صدر مراهق ليس من الذكاء ولا من المعاني الرهيفة بمكان.

وكالعادة، قطع صراع الأضداد في ذهنه وصوله المدرسةَ، وغرقه في ضوضائها.

وفيما هو على باب قاعة مراقبته، في الجناح المحتوي حجرة لمى، ما برح ينظر إليها وهي في جلستها الانعزالية داخل حجرتها، المظلم كل ما فيها لولا أشعة الصباح المنسربة من النافذة، فتبدّت له كما لم تتبدّ خلال الأشهر التي عرفها فيها، صورة سوريالية تغشاها كل معاني الغرابة والشر لأنثى في مطلع الثلاثينيات، وحيدةً على كرسيها، طارحةً ثقلها على منضدتها، ووجهُها غائرٌ بين خصلات شعرها المصففة وفق الطرائق الحديثة، المرخاة كأغصان شجرة موات.

راوده السؤال البديهي:

– كيف لم ترَ فيها من قبل ما تراه اليوم؟!

فأجاب سريعًا بصوت تلقفته أذناه:

– وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة.

ومع الأخذ والرد اللذيْن خلقهما تأمّله في مشهدها، غلبته الحماسة، فقصد حجرتها يريد إطفاء بعض ناره.

دخل متجهّمَ الوجه صارمًا، ملقيًا التحية بلهجة بالغة الجفاء:

- السلام عليكم.

ردّت ببرود:

- أهلًا.

أسرع يسرد لها ما لديه، كأنما ينبهها إلى أنه ما كان ليدخل حجرتها دونما سبب موجب:

- أمس، صادفتُ كلامًا شديدًا كتبه فيك بعض الطلبة في الفيس بوك، فأردت تنبيهكِ.

رفعت رأسها ناظرةً نظرة ذات معانٍ شتى، فيما تابع كلامه:

- في صحيفة افتتحها بعضهم، وقد رأيتُ وجوب إعلامك.

فلم تغيّر جلستها المستحكمة، لكن علامات الشدة في مواجهة ما حمل اتضحت على وجهها:

- ما قالوا تحديدًا؟

ردّ ببسمة عميقة:

– لا.. أنا لا أنقل إلى أحد ما يُقال فيه من سوء.

ثم أردف بخبث:

– لكن إن شئتِ أعطيتُك الرابط.

فأسرعت تبحث على سطح منضدتها عن ورقة وقلم:

– أرجو إذًا أن تعطينيه.

ردّ بلا مبالاة ممزوجة بسخرية:

– ومن أين لي به؟ وكيف لي أن أحفظه؟ إن شئت كلميني اليوم مساء في الفيس بوك أرسله إليك.

أراد بهذا قطع الحوار، فقد كان معلومًا لديه بالضرورة أنها لن تبوح باسم صحيفتها الإلكترونية، ولن تراسله من خلالها.

وإذ تهيّأ للانصراف ابتدرته:

– لعلك ضقتَ بها دار أمس؟

فأشار برأسه إشارة خفيفة مبديًا ضيقه، فيما تابعت باستعلاء:

– لقد أتينا أنا ومنذر على ذكرك غير مرة، وكان رأيه فيك دومًا أنك إنسان بسيط جدًّا، والبساطة ليست مما يصلح في أيامنا هذه.

بلغت غضبته الغليانَ، لكنه تعمّد احتباسها، فلم يكن مستعدًّا لتقبّل استدراجها إياه لإعادة المحاورة والمحاجّة، بل على النقيض، كان يبتغي إرسال رسالة تقول: وقت الكلام معكِ قد انتهى، فلقد ثبت لدي أنه ليس ممن ينفع أو يصح معكَ الكلام أو الجدال.

ولم يدرِ أفهمتْ ما أراد أم لم تفهم حين تابعت بصلافة واستفزاز:

- وهو أكبر منك كما تعلم.

اربدّ وجهه حتى بات كالصخر أو أشدّ جمودًا، وطفق يحاور نفسه:

- أيعقل؟ إنها تكرّر الكلمات بعينها التي نبهتها أمي إلى أثرها السيئ ومخالفتها الواقع، على أنها ادّعت تراجعها عنها وعدم قصدها ما فهمناه.

رباه!! أي إنسانة هذه!! بل أي شيطانة!!!

فيما تابعت حديثها:

- وأما نجاح، فلقد كلمتني غير مرة في شأن ما حدثناك به، قائلة إنها تألم لأجلك إذ تسمع ما يقولون فيك في غيابك.

فتحامل على غيظه، سائلًا إياها بجفاء مطلق:

- ولِمَ انتقتك أنتِ لتنقل إليك هذا؟

وقبل أن تجيب أتاها بالإجابة بصيغة السؤال:

- ألَمَا عرفته بيننا من مودة؟

فأشارت برأسها أن نعم، فحدجها بحدة مرسلًا رسالته عبر نظرته:

- ولعن الله وقاتل تلك المودة.

ودون أن يغير من ثقل حركاته وجفاء نظراته، سألها:

- أهناك من شيء آخر تريدون تنبيهي إليه غير ما ذكرتموه أمس؟

متعمدًا تحميل سؤاله كل ما يريد، ويحمل صدرُه من معاني الفراق والجفاء والإحساس بالغدر، فلم يبنْ له أأدركت كلَّ ما أراد أم لم تدرك، وهي تقول رافعةً رأسها بإشارة النفي:

- لا.. لا شيء.

ودون أن يلقي تحية الانصراف، أو يطيل النظر إليها، أدار ظهره ومضى بصلف نحو باب حجرتها:

- إذًا، فقد عرفت اللعينة من أمي مواطن إثارتي فتعمدت تصويب سهامها المسمومة إليها اليوم، ناسخةً تبرؤها واعتذارها المبطن خلال المكالمة.

ليت شعري.. كيف لم ألحظ تمرّغها في أتون الشر إلى هذه الدرجة خلال الأيام الماضية؟!! أفتراها كانت تخفي ما في نفسها أم كنت أغضّ بصري عنه؟.

لا... قد كان واضحًا وكنت أتجاهله، والأدهى من ذلك والأمرّ أني طالما لقيت وجوه المدرّسين تتمعّر لمرآي داخلًا حجرتها التي لم يعتد أحد أن يلجها، ولا اعتادت أن تسمح لأحد بذلك، ثم تتغير مواقفهم مني يومًا فيومًا، ويحوّم فوق رؤوسهم طائر الشك.

لكنني أمعنت في صحبتها على كل ما لحظت: أفتراني من حيث أردت أن أحتوي الخير والشر فقدتهما معًا، فلا «لمى» رضيت ولا المدرسون اطمأنوا إلى جواري.

أتراني في سعيي نحو بعض اللا انتماء فقدت كل انتماء، فقدت كل صدق وكل خيريّة في عيون الآخرين؛ لأني في أعماقي- وإن لم أدرك ذلك- فقدت احترامي لنفسي.

نزل درجات سلم المدرسة متثاقلًا، شاعرًا بفداحة المصيبة، وشاعرًا فوقها بشناعة وسيلته وغايته، أراد أن يغدو مقبولًا لدى الجميع فرفضه الجميع، وأراد أن يجمع في الصحبة كل أحد، فلم يبق له أحد.

وإذ وصل باب المدرسة أتاه صوت من خلفه أذكره مقامه:

- إلى أين أنت ذاهب يا أستاذ؟

كانت أمينةَ السر التي تعين نادية في بعض عملها، فذكر أنه ما يزال في المدرسة، وأن الامتحان لم ينته، وواجبه في المراقبة كذلك لم ينته، فأشار إليها بابتسامة، ثم عاد أدراجه إلى قاعة مراقبته، وهو يقول:

- والحياة كذلك.. لم تنته.

-١٤-

ازداد ضيق صاحبنا بما حوله وبمن حوله بعد أن تصرّمت أيام المدرسة، وجاء الصيف بقيظه وأرقه، وبمساحات فراغه التي ينساح خلالها الفكر في مساربه، فيدخل مغاور مظلمة ثم قد لا يخرج منها.

أما ما دار في المدرسة وما ظلّ يدور حتى آخر أيام الامتحانات، فقد عمل عمله في ذهنه، حتى قرّر أن يجعل العام المقبل مختلفًا في كل شيء، وأما سحر وأهلها... فكانت تلك المعضلة التي يقف أمامها شاعرًا بالعجز.

في كل مرة يزورهم تبعد الشُّقَّة بينه وبينهم، وهو يرى الصمت والضيق والملل أسياد بيتهم، فإذا ما حاول التغيير أو أراده، برزوا له بوجوه متجهمة لم ترضَ ما يفعل، أو لم تدرك عنه رغبته الملحّة في التغيير.

بذل جهده، ليقرّ آخر الأمر أن ما أمامه شيء غريب يعسر تبديله أو تحسينه، وإذ بثّ ضيقه لسحر تقبّلت مرة أو مرتين وراحت تبحث له عن الحلول، لكنها ما لبثت أن انقلبت، وباتت ترى في شكواه نيلًا من أهلها لا ترضاه، فخشع لما خامره الشك فيه بادئ الأمر، أنها لم تفقه قوله بل جاملته مجاملة، فهي لا تكاد تعرف من الدنيا غير بيتها وأهلها، فلن تجد فيهما من الغرابة ما وجد.

في حيرة بات يقضي لياليه، وتزيده فيوض الحب من سحر قلقًا، فلا يملك التراجع أو الانسحاب، ولا يملك كذلك الاستمرار في مسرحية الضيق والملل وتبلّد المشاعر التي يرى نفسه غارقًا في تضاعيفها، تغمره أمواجها.

وكان يوم ميلادها، فاصطنعت فيه مع أهلها احتفالًا، جاءه صاحبنا وأمه مشتركين. فلم تزد الطقوس على تقديم قالب الحلوى مع غياب الابتسامة وغياب الحديث، حاول صاحبنا تلطيف الجو بالتقاط صورة له بين أمه وأم سحر فانتفضت الأخيرة رافضةً، وحاول طرح بعض الطرف فقابلته مع أبنائها بتجهّمهم المعتاد.

كادت الدمعة تفرّ من عينه، فأطرق قليلاً، ثم رفع رأسَه ناظراً في التلفاز الذي يبثّ خبر إعلان تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام خلافةً، عارضًا صورًا لأمير التنظيم وهو

يرتقي منبرًا في مسجد من مساجد الموصل، خاطبًا في الناس بلحيته السوداء ومشهده اللافت.

وفي صدره راح يردد:

- أخشى أن مصيبة من ابتلوا بك يا هذا على فداحتها أقلّ شأنًا من مصيبتي ببيت حميّ أولئك.

فجاءته همسة في أذنه من سحر بصوت ناعم شفوق:

- ما لك؟!!

أطلق تنهيدة عميقة، وملأ وجهه بمعالم الضيق، ثم انتزع من بين ذلك كله بسمة ضعيفة متكلَّفة:

- لا شيء.

فما راعه إلا صبحي قائمًا يقفل التلفاز بغلظة دون سؤال الجالسين عن رأيهم، ليشغّل شريط فيديو لأحد أفلام العنف، رافعًا عقيرته بلهجة مغرقة في العامية، مشبَعة بمدّ الحروف:

- هذا أفضل، ما لنا ولداعش وماعش وغيرهما.

التفت صاحبنا إلى سحر سريعًا يحدجها بنظرة مملوءة اشمئزازًا واستنكارًا، فبادلته نظرةَ مفاجأةٍ بادي الرأي، ثم أعقبتها بمثيل نظرته، وأدارت وجهها عنه، ثم لم تلتفت إليه حتى غادر مع أمه منزلها.

ومساءً هاتفها، فانتفضت فيه سريعًا:

- ما معنى هذه النظرة التي حدجتني بها اليوم؟

- أما رأيتِ إلى تصرفات أهلك كلها؟ ولا سيما أخيك الذي أفاح المسك في الجو؟

- أتسخر من أخي؟ أما كفاك تماديًا!؟

خفف من حدّته مهدّئًا من روعه وروعها:

- يا حبيبتي، هل ترين من الذوق ما فعله أخوك اليوم؟

- قد لا يكون مناسبًا، لكنه ليس كافيًا لتحدجني بتلك النظرة القميئة، ولا لتصطنع كل هذا الجفاء منغّصًا عليّ يوم ميلادي.

- أأنا من نغَصه أم أهلك؟

- أهلي.. أهلي! كل شيء عندك مردّه إلى أهلي.

- حسن، عدّي عما قلت، فليس يهمني آخر الأمر إلا أنت.

- تمامًا، فليكونوا كما يشاءون، ولنكن كما نشاء.

على عدم اقتناعه بقولها تابع الحديث، حتى إذا ما أغلق الهاتف خلا إلى ضيقه وألمه، وإلى تبرّمه الشديد بمقولة: لا يهمني إلا أنتِ، فطالما رأى وسمع من تجارب الآخرين ما أكّد

أن الزواج علاقة أسرتين لا فردين فحسب، ولا يمكن لها أن تكون.

وبحثًا عن بعض تسرية لنفسه، نهض يريد الخروج من البيت، وتفقد كالعادة بطاقته الشخصية ليحملها معه، فلم يلقها حيث يضعها عادة.

فتش ما حوله كثيرًا، ثم نادى أمه، فطفقت تفتش معه كلَّ شبر قرابة ساعتين، حتى ألقى آخر الأمر بجسده المنهك على إحدى الأرائك يائسًا:

- علينا أن نقرّ أنها ضائعة خارج البيت.

كانت أمه مغرقة في بحثها في زاوية فتشها من قبل مرتين، فانتظر قليلًا، ثم أعاد عليها القول:

- لا تتعبي نفسك وراء فراغ، لو كانت هنا لوجدناها.

فاستقامت بعد انحناء، والتفتت إليه بضيق ممزوج بخوف:

- ما المعنى؟

- علينا أن نبحث عنها في الخارج.

- أتدرك ما يجرّ ضياع البطاقة في أيامنا السوداء هذه؟

هزّ لها رأسه بتسليم:

– أدرك، ولكن لا مفرّ.

– حسن، لا بدّ أولًا أن نعرف الإجراءات التي علينا اتخاذها، سأتصل بوائل أسأله.

وما كان وائل إلا ابن عم لصاحبنا يصغره ببضع سنين، وعلى أنه يصغره في السن فقد حصّل باجتهاده ونشاطه مكانة عليا في منظمتي الشباب والحزب الحكوميتين، وطالما فضّلت والدة صاحبنا استشارته في مثل هذه المواقف ثقةً بمعرفته. فغادرت حجرة ابنها قليلًا، ثم عادت منشرحةً:

– كلمتُه فأعلمني بالإجراءات وطمأنني، قال إنها إجراءات عادية، لكنْ ينبغي أولًا أن تذهب إلى قسم الشرطة لتبلغ عن الواقعة، ومعك شاهدان.

– حسن، لكن القسم الآن مغلق، علينا الانتظار إلى غدٍ.

أثّرت كلمات وائل المطمئِنة فيه أبلغ تأثير، فأسبل إزار النوم وقد غشيته رعشة السلام بعد قلق عظيم.

وبعد ظهيرة اليوم التالي، مضى ومعه صاحبان له إلى قسم الشرطة غير البعيد من بيته.

ولج القسم أول مرة في حياته كغيره من الوالجين، دون أن يبدو له ما يريب، وصادف أن لقي آخرين جاؤوا يقدمون بلاغات عن ضياع بطاقاتهم الشخصية فازداد اطمئنانه، ومع

ما لقي من عناصر الشرطة من معاملة عادية بلغ الأمن من نفسه ذروتَه.

ثم جاءه أحد العناصر قائلًا:

- سلمني ما يثبت شخصيتك.

فناوله دفتر خدمته الإلزامية، فمضى الشرطيّ إلى أحد الطوابق العلوية. وما مضى طويل وقت قبل أن يحضر شرطي آخر يبدو ذا رتبة، فيطلب من صاحبنا أن يتبعه، فمشى عبد الرحمن من خلفه في ممر معتم غير طويل إلى غرفة نائية، أدخله الشرطي إياها، ثم وضع في يده قيدًا مربوطًا بسلسلة إلى الحائط.

على عظم الموقف كانت ثقة صاحبنا بنفسه أعظم، فلم يدر في خلده ما يريب، بل تأوّل ما يجري على أنه إجراء اعتيادي مرتبط ببلاغه، إجراء مؤقت لن يستغرق إلا بضع دقائق، لكنّ ربع ساعة أو أكثر تقضّت كل دقيقة منها مسمارًا في نعش صبره وهو وحيد في الغرفة، ليحيط من بعدها الشك بنفسه، فلما رأى الشرطي الذي قيّده يمرّ بجانب الحجرة، تجلّى له ملاكَ خلاص يحمل له نبأ الدخول إلى الجنة بغير حساب، فهتف به:

- أهناك شيء وراء الذي أراني فيه؟

فالتفت إليه بتجهم لا يخلو من حنق:

- لو لم يكن هنالك شيء ما وضعت في يدك القيد.

هاله ما سمع، وطافت به أنواع الوساوس كلها، فما توقّع- يومًا- أن يقف هذا الموقف وقد حرص كل الحرص أن يجنّب نفسه وقوفه، لكنه ذكر أن جهاز جواله ما يزال معه، فاتصل بوائل مضطربًا، وفكر أن يتصل بأمه، لكنْ غلبته آماله:

- لَمَ ترعبها! وقد يكون الذي أنت فيه عارضًا وراءه خطأ، انتظر مجيء وائل أولًا.

فما بغته إلا صوت شرطي في الخارج يقول لزميل له:

- أستنقلون هذا الذي في الداخل إلى الشرطة السياسية الآن؟

سُقط في يده، بل كاد يغمى عليه من هول الصدمة:

- الأمن السياسي؟! ما فعلت لأنقل إلى الأمن السياسي؟! لم آت ما يوقفني هذا الموقف، وليس لي أصدقاء مشتركون في الأعمال المسلحة ما أزال على تواصل بهم.

أيمكن أن يكون بعض من أعرف يشتركون في ذلك خفية فأوقعوني في شراك أفعالهم؟!!

غرق في بحر من عرقه، وطافت به أخيلة السواد، بل أيقن بالضياع، لكنه قوّى نفسه من بعد:

- لم أفعل يومًا ما أؤاخَذ عليه، فلمَ القلق؟ ولمَ الضيق؟ لا شك أن هنالك خطأً ما، ولعله يصحَّح سريعًا، فأنا معروف

للقاصي والداني، وتحركاتي كذلك معروفة، ليس لدي ما يثير الشبهات، أو ما يمكن أن يفيد الجهات الأمنية بمعلومة، هذا خطأ ولا بد.. خطأ لعله يُصحَّح سريعًا.

أيقظه صوتٌ يناديه باسمه، فحسب الوقت قد حان لاقتياده، التفت إلى مصدره وقد تحجّر صدره، فإذا وائل يدخل عليه الحجرة بزيه العسكري، فكأنما سكب عليه شلالًا من بَرَد، وابتدره سائلًا بقلق:

- ها.. ما الأمر؟

ردّ وائل بضيق:

- هناك مذكّرة بحث معمّمة في حقك من فرع الأمن السياسي منذ قرابة سنة ونصف.

- لِمَ؟ علام؟

- لست أدري، لكنني كنت الساعة لدى رئيس القسم فطمأنني إلى أنه لا شيء مقلق، على كلّ لو كان الأمر خطيرًا ما تركوك عامًا ونصف العام، بل لقبضوا عليك وأنت في البيت، أو اقتادوك من عملك، هي ولا بد قضية عرضية.

- لكنني لم آت ما يوقفني.. لا عرضيًّا ولا جوهريًّا.

- عساه تشابه أسماء.

-١٥-

- عبد الرحمن العاطف

جاءه فجأة صوت السجّان الخشن مناديًا باسمه، فأنهضه من جلسته بين أرتال زملائه المكوّمين في وقت غفوتهم الصباحية، صوت يحمل في تضاعيفه تجليات سارّة، فأجاب بكل ما في حباله الصوتية من طاقة.

- نعم.

- اجلب أشياءك وتعال.

سكنه شعورٌ عجزَ عن التوقف لاكتناهه، فراح يقفز قفزًا وهو يبحث عن حذائه بين مجموع أحذية زملائه، وراح بعض زملائه يساعدونه في نشوة سرت إليهم من فرط نشوته، حتى إذا ما لقيه فاحتضنه وصاح مناديًا السجان:

- وجدته، ها أنا قادم.

فُتح له الباب الحديدي الصقيل، ليأتيه هواء متجدّد، مزيّن برائحة القهوة معشوقته التي افتقدها شهرًا كاملًا، ثبت خلاله في التحقيقات أنه ليس المقصود، بل أحد أقربائه له صلة بأفراد المجموعات المسلحة التي تقاتل قوات الحكومة.

سار مع السجان الذي نادى عليه بين الممرات نحو مكتب المسئول، فلفته مرأى عناصر الأمن وأكثرهم يرقبونه بوجوه عليها أمارات الرثاء والأسى لحاله، فأدرك أن قصة دخوله خطأً شاعت بينهم، ففشت معها مشاعر التأثر لأجله.

وبعد سويعات، كانت أشعة شمس الأصيل تتكسر على جبهته وهو يخطو خارجًا من بوابة القصر العدلي، خطوات يمنعها من سرعتها التي يريد تأثر ساقيه بطول مدة الجلوس مقعيًا ومحتبيًا، والجروح الكثيرة التي سببتها عراكاته مع زملائه النوم ذوي الأظفار الطويلة التي تسبب الأذيّة إذا ما انغرزت في اللحم، وما أكثر ما كانت تنغرز. ويحدوها شوقه للقاء أمه وطمأنتها بعد شهر قاسٍ لم يؤذه شيء فيه قدر بعده عنها وعجزه عن تكليمها، مع استشعاره خوفها عليه.

سارع إلى الاتصال بها من جهاز جواله وهو على باب القصر العدلي، فجاءه صوتها مصحوبًا بلهفة شديدة:

- آلو.

- نعم يا أمي.. هذا أنا.. أنا عبد الرحمن.. قد خرجتُ في التو.

- بني.. حبيبي.. قلبي.. عمري.. كيف أنت؟

جاءه صوتها المغمور بعبرات البكاء متقطعًا منفعلًا، فعاجلها بقوله:

- نصف ساعة وأكون في البيت، هدئي من روعك، سأستقلّ سيارة أجرة من هنا.

حين وصل بناءه، صعد درجات السلم نحو باب الشقة وجِلًا، فتلك أطول غيبة غاباها عن بعضهما.

فتحت له الباب بلهفة من قبل أن يقرعه، فجرى نحوها وارتمى في حضنها متمرّغًا، خطوة خفَّفت من عظم اللقاء الذي توقعاه فوق ما تقدر أعصابهما أن تحتمل، بعد شهر رجب اخترمت فيه صدر كليهما أخاليط الوساوس المغرقة في القلق على الآخر.

قال لها مخفِّفًا:

- أما كنت تعلمين أني بعيد كل البعد عما يلحق بي الضرر، فلمَ غشيك القلق؟

- لأنني خشيت على صحتك.

فهزّ لها رأسه بضيق، فيما راحت تتحسس أطرافه بلهفة:

- لا أصدق.. لا أصدق أنك بتّ بين يديّ.

شد على كفّها بمحبة:

- بلى، أنا ذا، أنا ذا بين يديك، عصفورك الصغير عاد إلى عش أمه الرءوم.

ولم يستطع مغادرة ذراعيها وحضنها من بعد، بل كطفل رضيع، قضى ليلته تلك في حجرها.

وعلى تعبه وأوجاعه، أصرّت سحر عليه وعلى أمه أن يحضرا في اليوم التالي مباشرة لتلقاه بعد الغياب، فتحامل على ما به، ومضى يتأبط ذراع أمه إلى بيتها.

فتحت له الباب بلهفة عظيمة، لترتمي في حضنه عشر دقائق كاملات، وهو يمسد شعرها ويقبّله بحنوّ:

- اطمئني، اطمئني، أنا بخير، كلّي بخير.

فيما يمنع بكاؤها كلماتها أن تتضح، فيضمها إلى صدره من جديد مهدئًا، ماسحًا على رأسها، مقبّلًا وجنتيها بحنان.

ثم دخلا على أهلها حجرة الجلوس، فهاله أن لم يعانقوه جميعًا، شعوره بعدم مبالاتهم به بلغ حدّ الصدمة، وقد وجد فيه بلادة ما كان يتوقعها بعدما لقي، ثم أذهله من أم سحر بعد دقيقة واحدة من الاطمئنان عليه أنْ راحت تبتدره بالشكوى

من حال زوجها ومرضه، ومن تعبها في شأنه، حتى عقدت لسانه عن القول، وما هو إلا أن ردّد في صدره بعجب:

- معقول؟! أإلى هذه الدرجة! في هذه الحال تقول هذا الكلام، ألا تأبه بما كنت فيه وما عانيت، كأني عدت إليها من رحلة في النمسا، قاتلها الله من حماة!!

ثم أذهله مرة أخرى أن صمتت بعد نوبة الشكوى، صمتت لا تتكلم لا هي ولا أبناؤها، بعد دقائق قضوها في كلمات اطمئنان وجدها باردة، خالية من كل أثر للروح أو العاطفة الحقّ، صمتًا نزل عليه أثقل من حِمل عشر جبال.

أما سحر فكان يشغلها لقاؤه بعد الغياب، وما برحت مقعدها إلى جانبه ويدها في يده، دون أن تقدر على تخفيف صدمتَه بموقف أهلها ولا سيما أمها، كانت أكبر من أن تتسع لها نفسه الخارجة من عالم ما وراء الأسوار حديثًا، فتركته محسورًا فوق ما هو فرِح بلقيا المحبوبة بعد فراق، وعاجزًا أن يبادلها طقوس لهفتها وسرورها بمرآه.

وظلّ السؤال الملحّ عليه:

- إلى أي جنس من أجناس المخلوقات أصهرت؟!! فقد بتّ أفقد فيهم أبسط صفات البشرية، ويوشك أن ينفجر دماغي لما أراه منهم، رباه.. أي نفوس لهم! أهم أناسيّ حقًّا أم أشياء من الأشياء؟!!

قد سمعت بنماذج من الخلق كثيرة ورأيت، لكنْ هم، أي نموذج نموذجهم، أمرّ بغيري مثلهم؟

ويومًا فيومًا من بعد التفريج عنه، كان إحساسه بما هم عليه يزداد، ويزداد معه الضيق منهم، فقد أثّر فيه كثيرًا أن يخوض تجربةً بهذه القسوة والمرارة فلا يبادلوه أبسط ما توقّع من مشاعر الاهتمام بتجاوزها، أو يحاولوا التسرية عنه ومساعدته لتخطي آثارها والانطلاق نحو الحياة بروح أخرى.

ولما لاحت له سحر تخالفهم فيما تُظهر، فقد صعب عليه أن يأخذها بذنبهم فيقرّر الانفصال عنها، كما صعب عليه أن يفكّر في إهمال واقعهم أو تجاهله، ومن ورائه مستقبل وأولاد سيكونون أهلهم، لكن الأدهى والأمرّ له أن سحر نفسها لم تكن تتميز منهم في شيء إلا حبها الكبير له، وأما تفكيرها وتفكيرهم، ومفاهيمها ومفاهيمهم، ومجمل أحاسيسها الأخرى بالكون والحياة والمواقف منهما؛ فإنما تخرج- وأحاسيسُهم- من مشكاة واحدة، إن لم تكن نفسَها، فمصيبته بها كما مصيبته فيهم، لا تكادان تفترقان.

وباتت كلما رأت ضيقه تعزّيه:

- لو كان أبي في عافيته ما ضقتَ ذرعًا بالجلوس في بيتنا، ولا أحسست بهذا التباعد الرهيب بينك وبين أمي وأخي صبحي، فليت تعارفنا كان في أيام صحته عافاه الله.

فيشعر بوقوفها إلى جانبه، ويربت على يدها مؤيدًا.

لكنّ هذا القول الذي اعتادته، بدأ يغيب عن كلامها شيئًا فشيئًا، ليحل محلّه الازورار عنه والعتب، ثم لتصفه بالتحزب ضد أهلها، ثم باتت تتهمه بالحقد عليهم والسخرية منهم، حتى ألقت له بكلمة كان لها أسوأ أثر في نفسه:

- أنت فاشل دومًا في حياتك الاجتماعية، فلا تعلّق فشلك في تفهم أهلي على شماعة صفاتهم، ها قد فشلت في مدرستك القديمة ومدرستك الجديدة، وضاق الناس ذرعًا بك في كلتيهما، وصاروا يتحيّنون الفرص لإزعاجك، فلا تتهم أهلي بأنهم أصحاب المشكلة.

دارت الدنيا في عينيه حين قالت كلمتها تلك، لم تدُر لجرأتها عليه بل لأنها فتحت بابًا كان يجتهد كلَّ الاجتهاد أن يسدّه، وهي التي طالما جاءته بصوت السامعة الشفوق المواسية، تجعله اليوم صانع البلايا بنفسه وخالقها.

انغرز نصل الكلمة في أعماق صدره، وصعُب عليه من بعد أن يتجاوزه، إذ جاءته من الزاوية الرخوة التي أتاه منها من سلفوا في حياته فآلموه:

– أنت الغريب فينا، أنت المميّز بصفاته غير الملائمة، أنت من يجب عليه التغيير.

فكيف وقائلتها هذه المرة محبوبته، خطيبته وشريكة عمره المستقبلية.

ثم باتت تضغط عليه بشدة ليغمرها بأمواج عاطفة مشبوبة شبيهة بما كان أول أمرهما، عاطفة لاهبة توقعت أنها أشعلتها أيام الفراق، فيما لم يكن قادرًا على تجاوز ما مرّ به.

فعلى أنه لم يلق تعذيبًا يُذكَر من عناصر الأمن وقد جاءهم خطأً، فإن زملاء السجن الذين رأوه غريبًا عنهم منبتًا وثقافة وتهمةً، راحوا يبذلون جهودهم كلها في إزعاجه والتضييق عليه، حتى تركوه محطَّم النفس منهارًا، حتى إذا خرج كان ينتظر أن يلقى من سحر العون والمعين، فإذا بها تكشف عن قناعة لديها تقول إن الرجل يعين ولا يعان، ويبذل ولا يبذَل له، ومِن بعد هذه الأزمة فالمفروض أن تكون خارجًا تحمل اللهفة للقياي، وغمري بكل ما تقدر عليه من حب، فإذا أنت تخرج مشتتًا ذاهلًا عني.

حاول إقناعها بأن ما مرّ به غيّر من نفسه كثيرًا، وأن عالم الظلام يترك آثاره فيمن يلجه رغمًا عنه، فما أسرع أنْ كانت تنفعل بشدة غير مستعدة للسماع، مرددة حجتها الدائمة:

- طالما اعتدت من أبي وأمي دلالًا لم ألق منك مثيله.

ولكي لا يكسر مشاعرها بقوله: أنا من يحتاج من يدللني بعدما لقيت.. طفق يحاول إيصال الفكرة لها بعبارات أخف وطئًا، فتدرك عنه ما يرمي إليه، وتزداد ضيقًا واستفزازًا.

-١٦-

كان لما لقي خلال سجنه أبلغ الأثر في صنع مسار جديد لفكره:

- لا يمكن لنا أن نتجاوز مأساة بلادنا إلا بأن نصلح الأذهان، فقد تبينت خلال مقامي مع أولئك المسجونين أن فيهم مَن أرادوا الإصلاح فضلّوا الطريق، وفيهم أصحاب نوايا طيبة تجاه بلدهم لكنها أخطأت وجهتها لقلة ثقافتها، وفيهم من استحكم الشر واستولى على نفوسهم كلها فاستخلصها له، فما عادت تبرق فيها بارقة خير مهما صغرت، وما من خلاص من هذا كله إلا بأن ننتبه إلى التعليم والتربية، لنهيّئ أجيالًا قادرة على السير بالبلاد نحو الخير.. نية وعملًا، فإن تكن السيطرة على تربية البيوت صعبة بل مستحيلة؛ فإن للمدارس شأنًا آخر.

بات يرى مشكلة المدارس بمنظار آخر أكثر عمقًا، منظار يرى من وراء هذه المشاكل الصغيرة بلدًا يُدمَّر، أسهم في تدميره إداريو مدارس أهملوا شؤونها، ومدرسون عاقبوا طلبتها تفريغًا لعقَدٍ في نفوسهم، حتى تركوهم صيدًا سهلًا لأفكار شعثاء، أخذت تذهب بهم ذات الشمال وذات اليمين.

وكلما استذكر زملاء السجن ونقمتهم عليه لأنه مدرّس؛ رأى من ورائهم موجهات كلمى، ومدرسي أنشطة غير صفيّة كمنذر، ومديرين كنادية، ولّدوا لديهم أحقادٌ شتى، فوجدوا فيه- من بعد وهو وحيد بينهم- وسيلة شفاء صدورهم، وتفجير غلائلهم القديمة.

وعلّق الآمال على بدء الدوام المدرسي، ليأتي المدرسة بوجه جديد، فلا يسكت عما لا يرضيه، ولا يداري ولا يماري في شأن مهما صغر، رغبة في الإصلاح، ورغبة كذلك في الانتقام؛ فهو لم ينسَ ما فعلت «لمى» ومنذر به، ومعهما نجاح، بل ما برح فعلهم يلاحقه ليل نهار، حتى تركه يترقّب لحظة لقائهم ليصطنع ردًّا لا يُبقي ولا يذر.

وكما العادة، قصد مديرية التربية قبل أسبوع من بدء الدوام لتحديد عدد حصصه ومكانها، والسعادة تملؤه بقرب ساعة المحاسبة، فما هاله إلا قول مفتش المادة:

- هناك ظروف تمنع عودتك إلى المدرسة نفسها .

لحظة ذهول عاصف مرّت به، كأن طائرة ابتدأت تحليقها بالعبور فوق جسمه، فما دار، بل ما مرّ في ذهنه أن لا يقدر على أخذ ثأره وتحقيق ما صبا إليه، وهو الذي قضى أيامه منذ خرج من السجن يعدّ اللحظات في ارتقاب ساعة العودة إلى المدرسة ليحقق غايته.

– لكنْ يا أستاذ، إن لي أسبابًا تدفعني للعودة إلى هناك.

قالها برجاء ظاهر، فنظر فيه المفتش بعمق ثم قال:

– سأسعى في ذلك بإذن الله، كلمني غدًا أو بعد غد.

وتركه يعود إلى منزله ذارعًا الأرصفة، وخيبة أمله قائده، فقد أظلم النور الوحيد الذي يهدّئ من روعه، ويخفف نقمته المتعاظمة على من أساؤوا إليه، وللتعليم برمّته فيما يرى، ولقد كان يعدّ الأيام على أمل اللقاء المنتظر ليرد الصاع أصْوُعًا، دون أن يخطر في باله لحظةً أن الرياح ستأتي بما لا تشتهي سفنه على هذه الصورة.

وزاد الطين بلّة ما لمسه من تردد لدى المفتش، أشعره أن وراء الأكمة ما وراءها، وأوحى إليه أن القضية ليست قضية شواغر امتلأت، بل لعلّ نادية وزمرتها قد سعين سعيهن في ألا يعود إلى المدرسة.

طفق يفتش في ذهنه عن التهدئة فلا يلقاها، مرتقبًا مكالمة المفتش التي تواعدا عليها بنفس متحرقة وصبر نافد.

كلمه أول مرة فقال المفتش:

- قد أمّنت لك أربع عشرة حصة في المدرسة نفسها، نصفها في التعليم الثانوي ونصفها في التعليم الأساسي، لكن أرجو أن تضع ملاحظاتي التي نبهتك إليها سابقًا عن التخفف من التوسع في الشرح وتقريب المفاهيم إلى أذهان الطلبة في حسبانك، على كلّ كلّمني غدًا لأؤكد لك توزيع الحصص.

لكنّه إذ كلّمه في اليوم التالي أجابه مرتبكًا:

- معذرةً إليك، فلقد أجبرتنا حركة تنقلات المدرّسين النازحين من أماكن الاضطرابات على تعديل الجداول، يؤسفني أننا مضطرون لجعلك في مدرسة أخرى غيرها، معذرةً.

- أمَا من مجال ولو لبضع حصص أشترك فيها مع غيري؟ أرجوك.

- حسن، سأحاول، لكن لا أعدك.

كانت تلك آخر المكالمات بينهما، ولاح لصاحبنا خلالها أن الأمور قد حُسِمت، فلم يكرر اتصاله.

وكان أول أيام الدوام المدرسي.

قصد المدرسة كأنما يقصد معركة، وقد شحذ نفسه للحظة اللقاء المرتقبة، ودخلها متجهّم الوجه متحفّزًا للشجار، يريد

نادية وزمرتها، ومن قبلهن «لمى» ومنذر، وما إن ولج الصرح المدرسي حتى وقعت عينه على أكمل واقفًا مع الطلبة في الساحة كعادته، فتبادلا التحية بحرارة، وفي قلب صاحبنا أماني عظيمة عن حلف بينهما في السنة الجديدة يواجهان به الأحلاف الأخرى، كالذي بين منذر ولمى، وبين نادية وزميلاتها من الإداريات، لكنّ أكمل ما أسرع أن تشاغل عنه، فأسرّها صاحبنا في نفسه متغافلًا، واضعًا نصب عينيه غايته الأساسية، وحاجته لمواجهة خصومه دون تشتيت لذهنه بالتفكير في شؤون أخرى.

قصد حجرة الإدارة ينصبّ انصبابًا، ولم يُلق التحية على أي جالسة من الإداريات، لكن عينه ما أسرع أن استدلت على منذر جالسًا على إحدى الأرائك، واستيثاقه بنفسه واستعظامه ذاتَه يرسمان معًا غلالة حول جسده، وخُيّل إليه أنه رآه فلم يبتدره بالتحية، بل أشاح عنه، فتأكدت في صدره كلُّ ظنونه، وبلغ غضبه مبلغَه، لكنه كتمه مؤقتًا، وتوجّه سريعًا إلى نادية المنشغلة على مكتبها بتحضير جدول الحصص وتوزيع الدوام.

اضطر إلى إلقاء التحية عليها ليفتتح الحديث، فجعلها في غاية الجفاء، لكنه لم يملك إنكار سرورها الظاهر لمرآه.

– أهلًا وسهلًا بك يا أستاذ.

فقابلها بمزيد تجهّم، داخلًا في الحديث بعجل نزِق:

- أهلًا، أخبرني المفتش بحصصي لديكم، فأتيت راغبًا في معرفة توزيعها وأيام دوامي.

كان أمله العظيم يحدوه رغم كل ما قال المفتش من كلام لاحت من جنباته معاني الحسم، يحدوه إلى أنّ له مكانًا، موطئَ قدم ولو صغيرًا في المدرسة يستكمل به ما يريد، فتشبث بمقولة المفتش الأخيرة على وضوح أنها مجاملة وتخفيف عنه لا أكثر، فما أسرع أن جابهته نادية بما كان يتحاشاه، وبشيء من نشوة لاح من خلالها إسهامها في صياغة الواقع الجديد أجابته:

- لا حصص لدينا هذه السنة لك.

وتابعها على قولها سالم المسئول عن إعداد جدول الحصص:

- قد أُعدّ الجدول، وهيئ، وقضي أمره.

نزلت العبارتان على رأسه قنبلة بل أشدّ، استبانت له من جنباتها ملامح المؤامرة التي شكّ في أمرها لإقصائه، فجاءت عبارة نادية ومن بعدها هاتان العبارتان- لتجعلا شكه يقينًا.

فإبعاده من المدرسة كان أمرًا دُبِّر بليل.

وفي هذه اللحظة، جاءه صوت منذر من جانبه، تغشاه الفرحة المتكلّفة، ويغشاه معها تكلّف الرزانة:

- أهلًا أستاذ عبد الرحمن، أهلًا وسهلًا.

وبكل حقد الماضي، ونزق الحاضر، وخيبة الأمل في الانتقام الذي أراده على أصوله فتفلّتت منه فرصته، حمّل وجهه تكشير هذه المشاعر مجتمعة، والتفت إليه بلهجة مُزجت بنقيع السمّ وسخرية الهزء:

- أهلًا.

فهوى منذر دفعة واحدة على مقعده، بعدما طأطأ رأسه حتى كاد يجعله في حجره. تاركًا صاحبنا مذهولًا أو كالمذهول، فما فعل الذي فعله إلا ليستفزّه فينهض إليه فيتشاجرا، وما حسب لحظة أن تكون ردة الفعل المبالَغ فيها هذه، فالتفت إلى نادية عفويًّا تحت وطأة مفاجأته متوقعًا أن تنتفض مدافعة عن وليّها الحميم، لكنها لم تغيّر من حالها، بل لم يلح على وجهها أي تعبير للاستنكار أو التساؤل، كأن المشهد الدرامي الذي دار أمامها قد غُيّب عن باصرتها تمامًا.

فجأه ردّها، حتى داخَلَه شيء من أسى طفيف لخصمه الذي تُرك في لحظة كهذه، وما تركه إلا الذين أوصلوه إلى أمثالها، فقفز إلى ذاكرته سريعًا قول أكمل: إن منذرًا هذا لا يعدو لهنّ دمية خرقاء، يستغلون فيها حب الظهور وإثبات الذات، شمّاعةً يعلقون عليها أخطاءهم، ويبرئون أنفسهم من مغبة ما يفعل.

وإذ غلبه اشمئزازه، أسرع خارجًا من الحجرة قائلًا لنادية:

- سأتصل بالمفتش مستفهمًا.

اشتمّ مما حوله رائحة عفن لا تُحتَمل، قذارة تئط لها الأرض، وتخرج أثقالها، أهذا جزاء أحلاف السيئين، أن تتهاوى عهودهم عند أول هزة، إن يكونوا كذلك فلمَ حمّلت نفسي همومهم وهم أقل من أن يحملوها أو يشكّلوها.

وقف في الخارج- محاولًا التناسي- إلى مجموعة مدرسين في الممر الطويل المحتوي الحجَر الإدارية وحجرة المدرسين، فما هي إلا دقائق حتى أطلت عليه من أقصى الممر «لمى» نازلةً من غرفتها، تملؤها حماسة شديدة، وقد زيّنت نفسها واتخذت بهرجها كاملًا، وراحت مفاتن جسدها تتراقص للناظرين، فما لاحت له حتى غمره تقزّزه منها، وتجلّت له كل مظاهر القبح والقماءة تتجلّى في صورتها، وما وقعت عيناها عليه حتى امتلأ وجهها بهجة وبشاشة، وافترّ فمها عن بسمة مديدة طفقت تتمدّد كلما خطت نحوه، فعاجله في دخيلته ما يدعوه إلى الرد المماثل، فقسا عليه وكبته، وتعمد أن يكسو نفسّه لبوسًا بالغ التجهّم في مواجهتها.

وطفق وجهه يزداد تقطيبًا وعبوسًا كلما بالغت له في ابتسامتها المشحونة بالتودد والتقرب، فراحت تبدي له معاني

الاستجداء ليبادلها مثيل ما تلقي إليه، دون أن يغير ولو قليلًا، حتى بدوا كلاهُما- وهما يتكلفان التعبير عن مشاعرهما- للناظر من بعيد أشبه بمتبارزين يملآن لوحة رسم كاريكاتوري ذي مغزى عميق.

وما زالت تقدم وتتودد وتتبسم حتى استوثقت من حاله، ثم آل استيثاقها يأسًا، فسألته من بعيد بلهجة الراجي الذي يدق باب مرجوّه الدقة الأخيرة:

- أعندنا هذه السنة؟

وبوجه تعمّد أن يحمّله من البغضاء ما تتشقق له الأكباد وتنفلق الصدور، لاويًا رأسه ومتخذًا قناع العبوس القمطرير، كأنه معذّب من معذبي الجحيم برز من صفحات كوميديا دانتي الإلهية؛ أجابها إجابةَ من تكلم بضع كلمات أنه وجد في الصمت احترامًا لها لا تستحقه:

- غالبًا.

لقيت نفسها أمام واقع لا يمكن مهادنته، فاستجمعت ما تبقّى لها من قوى نفسها، ومضت- متظاهرة بأنها لم تتأثر- إلى إحدى الحجرات الإدارية، فيما الاضطراب قد عمّ نفسها بوضوح، وتربَّع على هامتها.

تولّدت لديه اللذة التي انتظرها مذ خرج من محبسه، والشعور أنه قد أخرج من نفسه أضغانَها كما يريد، ضاربًا

على أوتار نفوس مَن آلموه بعنف، وملكته نشوة غلبت على أقطار نفسه فبلغت ذروتها، فقصد حجرة المدرسين- من بعد- يطلب الاسترخاء برؤية مَن يحب من زملائه، ودخلها منبسطًا سعيدًا يحيي من فيها بحرارة مستطلعًا وجوههم وجهًا فوجهًا، حتى وقعت عينه على نجاح.

اربدّ وجهه في لحظة، وآلت تحياته الحارة رشقات من سهام النظرات، واتخذ مكانًا يجانب مجلسها لئلا تقع عينه عليها مصادفة، وقد فكر ألا يدخل الحجرة فردّه عن فكرته استقبال المدرسين الحار، فاستعاض بأن يلقي لها مشاعره المحرقة إلقاء، تاركًا كل عضو من أعضائه ينضح نحوها بمعاني البغضاء والنقمة، حتى أثّر الموقف ببعض الحاضرين فسارعوا إلى مغادرة الحجرة، فيما صديقتها الجالسة بجانبها تنهال عليه بتحيات حارّة تبذلها إليه بشيء من رجاء، خشية أن ينفجر الموقف بصديقتها، وبها أيضًا.

ولم تكن الوحيدة في هذا، فنجاح نفسها راحت تتكلّف كل ما في وسعها من ابتسام وطلاقة وجه، فلم تغن أفعالها شيئًا، ولم يلطّف صاحبنا من تعابير وجهه، أو يخفف من عواصف نظراته، حتى غلبها اليأس على أمرهما، وغشي الارتباك والانفعال نجاح فكادت تفقد أعصابها، فيما صاحبنا يرقبها بطرف عينه فتستولي النشوة على قلبه كلما عظم انفعالها:

– ها قد بلغت بعض مرادي الذي لبثت أشهر الصيف أرتقبه، وما يزال في كنانة سهامي الكثير، فارتقبي موتك البطيء حين يبدأ الدوام حقيقةً، كل خوفي الساعة أن لا يكون لي موطئ قدم هنا هذا العام.

وكانت الكلمة الفصل لذلك الذي يخافه، فكل ما في المدرسة أكد له أن حلمه الذي قضى أيام الصيف ينتظره، لم يكن إلا هباءً منثورًا.

الغضب المكبوت سرى في أنحاء جسده، فخنق فيها كل معاني الحياة، وفشله في العودة إلى المدرسة تبدّى له انتصارًا ظاهرًا لخصومه، فما تعدِل غضبته وجفاؤه وتجهّمه في وجوههم ما داموا قد حققوا ما يصبون إليه، فقد حسموا المعركة من قبل أن تبدأ، وكَفَوا أنفسهم مؤنة القتال.

وعلى يأس وضغينة وترقَب، طوى نفسَه وراح يرنو إلى قادم الأيام برجلٍ قد مسّها العرج، وعينٍ ما تزال على المدرسة وأخبارها، وقلبٍ قد تفجر غيظه فرسم لوحة صماء، ليس فيها إلا بلون الدماء.

-١٧-

راحت الهوة الواسعة بينه وبين سحر تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، حتى تقارب الهوة بينه وبين أهلها.

كلاهما مختلف عن الآخر اختلافًا لا يسعه اللقاء، يتواجه لديهما الشيء مع اللاشيء، الزخم المعرفي والشعوري لديه، بالفراغ المطلق والخواء اللانهائي، والغرق في الأهداف المحدودة ومطالب الحياة الأولية عندها وعند أهلها. فما كان تقابلَ ضدين، بل تقابل الامتلاء الذي لا يقبل أن يخوى بالخواء الذي لا يقبل أن يمتلئ.

وفوق هذا وذاك، كانت ترى التغير الذي أصابه من بعد سَجنه فيكاد يقودها إلى الجنون، فبه زادت المساحةُ الفارقةُ بينه وبينها، ازداد نزقًا وانفعالًا وعنادًا، ونفورًا من أجواء أهلها ومفاهيمهم، وقد كانت تأمل أن يقرّبه سجنه من ذلك كله، فإذا به قد زاد تشبثًا بإقباله على الحياة التي اعتادها إقبالًا يناقض انعزالها وانعزال أهلها المتفرّدَين، باحثًا عن ألق لا نهائي ينفي

من ذاكرته ظلمة الشهر المقيت، وهي تريد استعادته وجعله بين يديها، بل في حِجرها، ممتلكةً كل شيء فيه.. عواطفه، وقلبه، جسده، حتى روحه.

وطفق سرطان غيرتها يتمدد، فما عاد مقصورًا على إناث أُخَر يعرفهن صاحبنا أو يعرفنه، بل وصل إلى أي فكرة تخطر في ذهنه سوى التفاني في حبها، لتضيق منه بكل أفكاره واهتماماته، وفي طليعتها ثقافته التي كانت بادئ الرأي أهم عوامل إعجابها به، فباتت تحاول صرفه عنها، لأنها تحوز على سهم من فكره ترى نفسها أولى به.

وأمام موجات الاضطراب الكهربي هذه، ما فتئ صاحبنا يبذل جهده في الاستيعاب والتحمّل، فكان أسلوبه هذا يزيدها ضيقًا به، فهي تأبى أن يستوعبها كما تأبى أن يستهتر بما تريد، ولا ترضى إلا أن يخضع لها ولكل ما ترغب قانعًا لا راضخًا، تريده عبدًا مستلذًّا بعبوديته لا نافرًا منها، يتمرغ في ترابها بسعادة، بل بنشوة عميمة.

أما ردّه الدائم، فكان أن يستمع إلى ما تقول صامتًا، ثم يلتفت عنها فلا يفعل إلا ما يقنع به، فيزيد لهيب صدرها اشتعالًا، ويدفعها إلى أن تسعى في الكيد له من وراء الأستار.

وكانت أولى وسائلها وأحبها إليها... إشعال صدره غيرةً عليها.

دعته مرة إلى جولة في بعض أسواق العاصمة القديمة، التي استنبتها التاريخ ثم مضى وتركها شاهدةً عليه، فوافقها، ومضيا يجوسان طريق أشهرها، المسقوف بغطاء تكسره بعض فتحات تتسرب منها أشعة الشمس بشاعرية، مستطلعين باعة المفروشات والأقمشة والشرقيات، المتفيئين ظل القديم في ظل طوفان الحداثة.

والسوق يملؤه متسكّعون أكثرهم نسوة، لكنهن لا يحملن أشياء تنهكهن كثرتها كما قبل سنين، فقد أفقرت الحرب الجيوب وأقفرتها، وبات أمل أكثر قاصدي السوق أن يمتعوا أعينهم بالبضائع المعروضة، فيخففوا عن أنفسهم وطأة القرار في البيوت، ويروّحوا قلوبهم في أماكن تملأ زواياها ذكريات الماضي الجميل، أماكن لم تسلبها الحرب كل جمالها.

حتى وصلا من بعد طول المسير محل الحلويات ذا الشهرة الكبرى الذي دعته إليه، فأقسمت عليه لتدفعنّ هي، ثم جلسا في مكان مخصص لاستضافة الزبائن.

وفيما تقرّب الملعقة التي تحمل لقمتها الأولى من فيها؛ ابتدرته:

- أتعرف أن غزلك فيما أرى، ليس على قدر ما أستحق.

فنظر فيها بهدوء المتصبّر وقد عرف ما يخفي صدرها:

- قلت لك من قبل: العشق الجسدي ليس الأصل لدي، ولا يلزم من الغزل أن يكون على صورة بعينها لا ترتضين غيرها.

فابتسمت بمكر، ساردةً فيما تريد:

– أتعرف أن مدرّسًا زاملني في العام الماضي؟ كان مهووسًا بي!

اشتعلت النار في دماغه وقلبه، وأظهرها الغيظ على وجهه، لكنها لم تعدّل:

– مرة قال لي: إن شفتيّ مرسومتان بريشة فنان.

ألقى الصحن من يده على الطاولة، فلفت نظر الجالسين جميعًا، فارتبكت وشعرت أخيرًا أنها ذهبت في كلامها أبعد مما ينبغي، وفيما يرمقها بنظرات منفعلة تكاد تمزّق ما أمامها، راحت تحاول استمالته ببعض حركات تدلّل:

– هدئ من روعك، لم أقصد إغاظتك، إنما ...

– والله لو لم أكن بين الناس الساعة لفعلت وفعلت، عودي إلى البيت وحدك فما عاد بي قدرة على إيصالك.

– اسمعني قليلًا.

فلم يجبها، بل مضى منفعلًا خارج المحلّ التجاري.

وقضت يومين من بعد تحاول إصلاح ما أوكت يداها، مستعينة بأمها وأمه، ومشدّدة على عشقها له الذي لا يزول، وأنها أخطأت السبيل لكن قصدها كان خيرًا، حتى لان لها مضطرًّا بعد طول رجاء واستعطاف، فأعاد تكليمها.

وعلى هذا المدّ والجزر، طفق مركب الأيام يمضي بهما، تريد جعله كما ترغب بالقوة، فلا تبرح تشدّه من وراء الستار إلى مسرح حياتها ليؤدي الدور الذي يستهويها، وهو لا يرضى ذلك ولا يستطيعه.

تريده أن يعود إلى ما كان عليه أول عهدهما بالخطبة، وهو لا يقدر على القفز فوق ما لقي من بعد، فترك في نفسه ندوبًا عميقة.

– لقد رأيتُ عالمًا آخر، ولقيت نماذج بين المسجونين لم أتخيل يومًا وجودها، ألا تدركين حجم هذه الندبات التي ملأت نفسي!؟.

فلا ترد عليه إلا بأن تنصرف بوجهها عنه وعن كل ما يقول، مظهرةً الإباء المطلق، فإذا ما تكلمتْ قالت:

– عرفت غير واحد ممن حولنا ذاقوا مرارة الأسر، فلم يخرجوا بما خرجتَ به.

– يا عزيزتي، قلت لكِ لم تكن مشكلتي في الأسر بل فيمن شاركوني فيه، لا يعني دخول غيري السجن ثم خروجه على غير حالي؛ أن الخطأ فيّ أنا.

فتذهب في تذمّرها بعيدًا، وتنصرف غير راضية.

-١٨-

هيّأ من نفسه، وارتدى خيرة ثيابه، ثم استقلّ الحافلة المتجهة إلى الضاحية التي تضمّ المدرسة.

كانت تلك أولى زياراته إليها بعد أن خرج من عداد طاقمها، وقد أرادها زيارة قاسية، تؤكد كل ما بدر منه في الزيارة الماضية، بل تزيده.

لقي كل شيء في الطريق كما عهده، لكنّ شيئًا ما قد تغيّر حقًّا، عرف بشيء من التفكير أنه نفسُه التي بين جنبيه، فلم يعد الطريق له كما كان، الأشجار عن جانبيه، المنتزهات المقامة على ضفتي النهر، وحتى شمس الضحى الرائقة الطارحة أشعتها الذهبية على الجبل الناتئ وعلى سفحه المعشوشب، كل ذاك لاح له جميلًا كما لم يكن من قبل، وحُقّ له أن يتساءل:

– ألأنه لم يعد طريقي اليومي!؟ أم هي أيام السواد جعلت كل شيء يأتلق فيه نور الحياة بعد تجاوزها؟

خلع على نفسه كساء التحفز إذ نزل من الحافلة، وأخذ في الطريق المُصعِد نحو المدرسة، حتى هذا الدرب بدا له متعِبًا كما لم يكن، فعزّى نفسه تعزية كلاسيكية:

- ما لك؟ ما زلت شابًّا.

حتى إذا وصل الفسحة المحيطة بالمدرسة، باغته المشهد الذي لم يكن يرغب به، لمى- عدوته الأولى ومجتمع الشرور في رأيه، ومن أتى المدرسة قاصدًا مجافاتها ومجانبتها- مستقلة سيارة إلى جانب رجل يبدو زوجها، وعلامات الحنق والشدّة من سحنتها تفجرًا، فآلمه أن لم يُتَح له إظهار قسوته عليها، لكنّه تناسى ضيقه أمام دهشته من هيئتها:

- أتريد شاهدًا أعظم دلالة على مرضها؟! إنسانة خارجة مع زوجها في سيارتهما، فلمَ عبوسها ولمَ تقطيبها!؟ ولمَ هذه التعابير التي تُشعرك أن صاحبتها تنظر إلى مقعدها من الجحيم؟ أم إن الدنيا كلها جحيم في عينيها؟

لكنْ لم الاستغراب!! أرأيتها يومًا على غير هذه الهيئة؟ حتى البسمة إن تكلّفتْها لا تأتي إلا مجتزأة.

لا حاجة بعد اليوم لتتساءل عما تضمر لك أو لغيرك، ولا حاجة لتفتش عن تفسير مَقبول لتصرفاتها غير العقلانية، فمثلها لا يُسأل عما يفعل.

ومضى داخل المدرسة متجهّمًا، متبخترًا في الممر الذي يضم الحجرات الإدارية فلم يصادف أحدًا، إلا إحدى الإداريات المعاونات خرجت من حجرة إلى أخرى، رأته فرشقته بنظرات متسائلة إذ لم تعرفه من النظرة الأولى، فألقى عليها التحية، فردتها بجفاف إذ عرفته.

باغته عندئذ السؤال:

– إن تكن لم تعرفك، فأي قيمة للمعارك التي تهيئ نفسك لخوضها، وأعداؤك فيها لا يذكرون شخصك، بله أن يذكروا الأحداث التي جرت بينك وبينهم.

وصل حجرة نادية، حيث تُعقد (مجتمعات الرداءة) كما يسميها، التفت إلى الحجرة مفتوحة الباب فإذا جمع الإداريات منعقد، لكنه لم يطل النظر، فما أراد إلا إرسال رسالة: قد رأيتكم لكني لن أحييكم. ألقاها على من في الحجرة بنظرته، ومضى في سيره المتبختر نحو حجرة المدرسين.

وقعت عينا منذر ونادية عليه، فاستغربا– بغضب– مروره دون إلقاء التحية، والتفتا إلى مَن في الحجرة يعلمانهم.

اطمأن صاحبنا بهذا إلى أنهم اهتموا بأمر مجيئه وتجافيه عنهم، وذلك مبتغاه من زيارته، أن يغيظهم ويستفزهم، ويوصل الرسالة المتضمنة موقفه الصريح الجديد: أنه بات لهم عدوًّا أو خصمًا، وما عاد يعوم في المنطقة الرمادية.

جلس في غرفة المدرسين ما جلس، فلم يلق أحدًا، والأوان أوان حصة لا أوان فسحة، فحدثته نفسه بالصعود إلى الطوابق العلوية حيث الموجهون، وفيهن (حنان) الموجهة التي عرف منها ما سرّه، وانعقدت بينه وبينها صحبة زادتها الأيام متانة.

كانت تلك الجديدة التي جاءت المدرسة في وقت متأخر من العام الذي مضى، ولأنها من أهل الجد ومديرة مدرسة سابقة؛ لم تلج القلوب بسرعة وفيها قلب صاحبنا، لكنها بعد وقت لم يطل باتت شخصية قريبة من الآخرين، وقد لقوا فيها ما حُرموه من معانٍ في غيرها.

وإذ خرج من حجرة المدرسين نحو حجرتها؛ صادف مدرّسة تريد أن تلج الغرفة، وعلى بعد خطوات منذر على باب حجرة نادية ينظر إليه.

في لحظة واحدة، أراد أن يوصل رسالة مزدوجة، فانطلق يحيي المدرّسة بحرارة، وهو ينظر بطرف عينه منذرًا الذي يرمقه بترقب، وتمنعه أن يبتدئ بالتحية خشيتُه أن يرد صاحبنا كما في المرة الماضية.

أمعن صاحبنا في حرارة التحية للمدرّسة، ثم استدار عنها وعن منذر متجاهلًا نظراته، بل متجاهلًا وجوده كله، غيرَ ملقٍ إليه نظرات بغضاء أو تجاف، لئلا يشعره بأنه ذو قيمة

تتطلب هذه النظرات، ومضى يصعد درجات سلم المدرسة بسرعة.

كان قلبه يخفق سعادة، فلقد هيّأت له الظروف إيصال ما يريد على الصورة التي يحب، دون أن ينَغّص عليه رغباته شيء ظاهر.

دخل على حنان حجرتها فحيّته بترحاب، وجلس إليها يستعرضان أخبارهما، فانطلقت تشكو من المدرسة وحالها وما آل إليه أمرها، وقالت ببعض تفاؤل:

- لقد نمى إلي أن مديرة جديدة ستأتي المدرسة قريبًا، فالشكاوى التي تتالت على مديرية التربية ما عاد بالإمكان تجاهلها.

- عساها تكون من أهل الخير.

- أيًّا ما تكن فستبقى خيرًا من هذه الحال، فوضع المدرسة ما عاد يحتمل، يا رجل ما بقي من مدرّسي العام الماضي بل الأعوام الماضية إلا من تجبره ظروفه على المكث هنا.

- أإلى هذه الدرجة؟

- وأكثر، حتى الذين جيء بهم حديثًا ضاقت بهم الأرض بما رحبت، وراحوا يسبّون اللحظة التي قبلوا فيها بهذا الانتقال.

ابتسم بسخرية:

- فلأحمد ربي إذًا أني انتشلت من هذا المستنقع.

- إي وربي، إني لأغبطك.

وقُرِع جرس الفسحة، فنزل إلى حجرة المدرسين يطلب رؤية زملائه، فهاله أن وجد مصداقَ ما قالت حنان.

لم يكد يلقى وجهًا يعرفه، المدرسون القدامى لاذوا بالفرار إلا قلة، والوجوه الجديدة يلوح عليها أن أصحابها من أهل الخبرة والعلم، والنفوس الطليقة.

جلس إليهم فوجدهم ألطف من زملاء العام الماضي وأقرب مودة وأخف ظلًّا، وما أسرع أن أطلق لهم تعليقه:

- ليتني أتيت المدرسة في ظلكم، لا في ظل تلك الأيام وأهلها !

فأجابه غير واحد منهم:

- بل ليتنا لم نأت هذه المدرسة قط.

فابتسم بسخرية، وقد بلغ الأمان من صدره مبلغه:

- إذًا فلست المشكلة ولم أكنها يومًا، أأريد دليلًا بعد كل هذا الذي أراه وأسمعه؟ كفاني تعلقًا في بحبال الماضي أنزو فيها، ولأنطلق إلى غدي.

أسره حبورٌ فائق، وشعور أنه استوفى كل ما كان يجول في خاطره، حتى إذا راح ومضى يخطو نحو باب المدرسة خارجًا، فاجأه اتصال من سحر:

- أين أنت؟

- في المدرسة القديمة، كنت أزورها.

- في المدرسة القديمة!! ألم يأن لنا أن نتخلص منها؟

- ربما، أنا الساعة ...

- على كلٍّ، لا بد أن تأتيني اليوم مساء، لدي كثير أريد أن أقوله لك.

امتعض وترقب الأسوأ، فلقد عرف منها أمثال هذا الكلام وما وراءه، ووجدها قد أفسدت فرحته بتجاوز أغلال الماضي، وفي لحظة اجترار بينه وبين نفسه ومقارنة قال في سرّه:

- أخشى أن الماضي بكل ما فيه، يبقى خيرًا من حاضري معها، فلأبق في أرجائه، ولا أفجعْ نفسي بالحقائق المرة التي لا تفتأ تتكشف لي من أمرها.

قصد بيتها في المساء متأهبًا للقاء رهيب لاحت بوادره في الاتصال، فمحادثتها ولقاؤها إذا ما غضبت كابوس له أشد من أي كابوس، فلا مفاهيمه تجدي معها ولا ما عرف من مفاهيم في حياته، إذ لها ولأهلها مفاهيمهم الخاصة التي ابتنوا

عليها عالمهم، وهي لا ترضى عنها بدلًا، ولا ترضى تراجعًا، ومن بعد ذلك تأبى التخلي عنه وعن محاولة إقناعه بتلك المفاهيم مهما يكن من أمر.

فتحت له الباب وحيدةً، وقد أغلقت باب القسم المؤدي إلى حجرة المعيشة، فقد أعدت العدّة للقاء صارم حجزت دونه أهلها جميعًا، وعلى نقيض عادتها ارتدت ملابس طويلة ذات أكمام، تعبيرًا عن رسمية مطلقة لم يعهدها منها.

دعته إلى حجرة استقبال الزوار، وكانت حجرة متوسطة، مفروشة بأرائك ومقاعد مصنوعة على طراز لويس الرابع عشر، يفصلها عن الشرفة باب زجاجي يمتد بالناظر منه بعيدًا جنوب العاصمة، حتى لَيبصر أقاصي الضواحي؛ فالمنزل في طابق عالٍ من بناء شاهق الارتفاع، يمنح موقعه الناظر فرصة مراقبة الظواهر الطبيعية الكبرى من فجر وشفق وغروب إلى أقصى المدى خلال استوائها على عرش الوجود، وانعكاسها على أرجاء البسيطة.

دخل الحجرة مستغربًا ومسلمًا أمره إلى الرهبة التي تصطنعها سحر على ما حولها، كان يخطط لاستيعاب غضبتها ثم محاجَتها بما يسكتها، لكنه خشي هذه المرة ألّا تنجح طريقته لما يرى من إرهاصات مريبة.

دخلت عليه متجهمة، واتخذت مجلسها مقابله، والعصبية تتفلت من حركاتها غير الإرادية، ثم قالت وهي تقضم أظافرها بانفعال:

- ألمْ يحن الوقت لنتجاوز قصة تلك المدرسة، ونبدأ حياتنا التي نريد؟

تهيأ ليرد عليها بأسلوبه العقلاني، فقاطعته لما رأت من علامات حركاته:

- لا تحاول أن تقنعني بأسلوبك هذا الذي حفظته، فما عاد بي طاقة على الاحتمال.

- احتمال ماذا؟

- احتمال ذهولك عني، اهتمامك بألف شيء غيري، انصرافك كلية عما أريد وعدم احترامك رغباتي ولا حياتي ولا تصرفاتي، كل شيء تفعله بي يدفعني إلى الجنون.

وتفجرت دمعتان صادقتان من عينيها.

حاول مداراتها، لكنه كان مصممًا على الحوار العقلاني كذلك لاجتثاث ما يضير من جذوره:

- اسمعيني، أنت تفهمين الأمور على غير النحو الذي أفهمه، اختلاف المفاهيم فيما بيننا مشكلة حقيقية ينبغي لنا أن نعالجها، وأن يستوعب أحدنا الآخر، وأنت إلى الآن تأبين أن تستوعبيني.

– أستوعب ماذا؟ انغماسك في شؤونك العجيبة، غرقك في قصص منذر ولمى ونادية وأشباههما، انصرافك إلى ذكرياتك المعتّقة وتركك حياتك الآنية دون اهتمام؟

– يا عزيزتي، قلت لك: عوامل كثيرة تدفعني إلى ما أنا فيه، والموضوع ليس بالضخامة التي تصورينها، لكنك تريدين الاهتمام كله منصرفًا إليك على نحو لا أطيقه، ولا أحسب أحدًا غيري يطيقه، أنا في النهاية شخص صاحب أهداف وطموح، ولم تنته حياتي عند إيجادي عروسًا وبيتًا وعملًا، وينبغي أن ترتقي فوق ما ترين وتسمعين لتفهميني ولو قليلًا، إن يكن من حولك يدعونك إلى هذا فلا تفرضيه عليّ.

نظرت إليه بحنق:

– ألن تكف عن النيل من أهلي؟

– أنا لا أنال من أهلك ولم أسمهم أصلًا، إنما أشرح واقعًا، هناك وسط حولك يدعوك إلى أشياء ليست من مفاهيمي ولا مما أستطيعه، وهؤلاء إن استمررت في الإصغاء إليهم فسيقضون على ما بيننا.

صمتت متهالكة، واستشعر صاحبنا بعض النصر إذ قدر على نزع الملاءة التي تستر بها ما في صدرها، لكنها ما أسرع أن استجمعت قواها، وعادت إلى الحديث بنزق:

– ستبقى تتعالى علي وعلى أهلي، لن تفتأ تنظر إلينا من عل حاسبًا نفسك غير مسبوق إلى ما أنت عليه، وليتك تعلم أنَّ ما أسمعه عن غيرك من أطباء ومهندسين هو نقيض ما تفعل وتقول، لكنه غرورك، غرورك هذا الذي يكاد يكون مرضًا.

تأكد بعبارتها تلك بعْدَ الشُّقَّة بينهما، وعسر الالتقاء أو التفاهم.

– افهميني يا عزيزتي، ليس الأمر كما تحسبين، القضية قضية ثقافة لا تعلُّم فحسب، وما زلت أراك لا تفرقين بين المصطلحين.

واسترسل يريد التتمة، فرآها تنظر فيه بمنتهى الرفض لما سيقول، فآثر أن يلوذ بالصمت، ولبث وإياها زمنًا، كلاهما ينظر للآخر بتحفز، كجيشين متحاربين فرض قادتهما هدنة لم ترضِ جنودهما.

ثم تحركت لتنهي الاجتماع بدعوى جلب الشاي، ونادت والدتها لتجالسه.

هذه المرة شعر حقًّا أن الشقاق قد ابتدأ، وأن أرض الحب التي طالما حسبها قادرة على تحمل أثقال الاختلافات قد أخذت تتصدع به وبسحر، وأن قادم الأيام لن يكون كسابقها.

-١٩-

لم يكن هذا الشتاء كسابقه، فقد تمدّد الجيش الحكومي في مناطق خصومه، وكثرت المصالحات في مناطق المعارضة، ولا سيما المحيطة بالعاصمة، فيما غمر التعب والإرهاق الناس، وغمرهم الإحساس بتكشف شيء غامض وراء كل ما حل بالبلاد.

وقد كان الخلق إلى وقت قريب في مجتمع العاصمة الذي يضم أهلها وقاطنيها والنازحين إليها من مناطق القتال منقسمين بين موال ومعارض، أما الساعة فإن طوفانًا غريبًا قد عمّ الجميع، كلهم يريدون الخلاص بأي شكل، وينتظرون حلول معجزة كبرى تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، إلى ما كانت عليه الحال قبل ابتداء الأحداث، تلك المرحلة التي وإنْ رفضها بعض الناس أو أكثرهم، فلقد باتت لديهم ذات حلاوة، بل باتت منتهى آمالهم ومستقر أحلامهم.

أما صاحبنا الذي استعاض عن التدريس بالعمل في البحث العلمي، فقد استمر يقينه يعظم يومًا فيومًا؛ أن خياره هذا كان الأصح، وإن يكن حنانه إلى التدريس وأيامه لم يفارقه، تاركًا مشاعره تتخبّط بين الضيق لما لقيه وما يزال ينخر أعماقه، وبين الأسى على ذكريات لم تكن كلها قميئة، فلئن رأى منذرًا ولمى ونادية وأشباههما، فلقد رأى غيرهم ممن لم يضِره من أمرهم شيء.

ولينفّس مكبوته، راح يوطّد علاقته بحنان، وقد وجد بينه وبينها مشتركات عدة، من ضيق بأهل الحل والعقد في المدرسة، واتفاق معه على أكثر المواقف والآراء من الطاقمين الإداري والتدريسي.

لكنّ شيئًا ما في داخله لا يدري كنهه ما يزال يحنّ إلى «لمى» حنانًا غريبًا، وليثأر منها ومن شعوره ذاك؛ راح يعمّق صلاته بحنان دون غيرها، فهي موجهة مثل «لمى» لكنها ذات نهج مغاير، وهو وإن لم يملك الجرأة على الاعتراف بشعوره أمام نفسه، فلقد كان يقرّ بصمت أنه يمور في صدره، ويسيّره وإن لم يدركه.

وفي يوم من أيام تشرين الثاني، كلّم حنان فأعلمته أن ما كان مرتقبًا قد حصل، والتربية أرسلت مديرة جديدة راحت تضرب بحزم لتعيد الأمور إلى نصابها.

ركزت حنان في حديثها على ما نال نادية وزمرتها من تبدل حال نتيجة أفعال المديرة الجديدة، فما أسرع أن استنبط أن «لمى» ومنذرًا قد وجدا لنفسيهما منفذًا إلى القادمة الجديدة، فأقنعاها بالتزامهما بالعمل وإخلاصهما وحزمهما مع الطلبة، مما يلوح للمرء من أمرهما بادئ الرأي.

فانتظر أسبوعين، ثم عقد العزم على زيارة للمدرسة يرى فيها ما حلّ بها، وكيف انقلبت الأحوال، وعساه من بعد يستطيع أن يشفي صدره، أو يكمل شفاء صدره الذي بدأه في الزيارتين الماضيتين ممن يطلب عندهم ثأره.

وفي اليوم السابق للموعد الذي اختاره حلّت بالعاصمة نكبة عامة، إذ قطعت المجموعات المسلحة المسيطرة على عين الفيجة، المنطقة التي تمدّ دمشق بالماء.

منذ عقود متطاولات الإمداد، وعلى أن هذا الحدث تكرّر غير مرة في ظل الحرب المتطاولة، فإنه في كل مرة جلب معه مشاعر الخوف والقلق على أشدها، فللعطش رهبة ليست لغيره.

وفيما ملأ الوجل قلب والدته، لم يتأثر صاحبنا كثيرًا، إذ ملأته الثقة من قرب حلّ المعضلة كما في المرات السابقة؛ لأن العاصمة وإن تكن مركز النظام، فهي مركز مؤسسات الدولة كلها التي تهم النظام ومعارضيه، وقبل ذلك فهي مجتمع

النازحين من أنحاء البلاد أتوها يطلبون الأمان، وقد أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، فلا مصلحة كبرى لأحد في تعطيشها.

مضى مستغلًّا انشغال والدته وسحر بانقطاع الماء في شأنه، والأمل يحدوه لرؤية نادية وزمرتها متصاغرين محجّمًا دورهم، حتى إذا وصل المدرسة ودخلها على عزم، وجد أنه قد وصل في اللحظة غير المناسبة.

لاحظ شيئًا من اضطراب يعمّ الجميع، ونظر في حجرة المدرسين فلقي فيها «لمى» وبعض الإداريات والمدرسين منشغلين بطالب في حالة إغماء أو ما يقارب الإغماء.

ولئلا يقع في إحراج عدم اكتراث الآخرين به وقد أتاهم زائرًا، أسرع في الصعود إلى الطوابق العلوية، وبحث هناك عمّن يجلس إليه فلم يلق أحدًا، أبواب الفصول مغلَقة، والدروس منعقدة، والموجهون ليسوا في مكاتبهم، حتى إذا استيئس، نزل يبحث عن أحد في الطابق السفلي، وما إن بلغ السلم الأخير الموصل إليه، حتى لقي في وجهه المديرة الجديدة واقفةً إلى لمى.

غلبته الحيرة، أيحيي المديرة؟ لكنه إذا حيّاها في أول لقاء يجمعه بها فسيكون من قلة الذوق أن يتجاهل الواقفة إلى جانبها تكلّمها، ولئلا يضطر لما يكره، تهيأ للاستدارة عائدًا إلى الطوابق العلوية، لولا أن وقعت عينها عليه.

لحظت غربته عمّن تعرف من أهل المدرسة، ولقيته نازلًا من الطوابق العلوية، وعادة الزوار أن يقصدوا حجرة الإدارة أولًا، فركّزت نظرها عليه وهمّت أن تسأله عن شأنه، فأسلم أمره إلى القدر، وراح ينزل درجات السلم آخذًا في محادثتها:

- يعلم الله، أني أتيت لرؤيتكم بعدما بلغني عن حسن إدارتكم، لكني إذ وصلت لم تكوني في حجرة الإدارة، فصعدت إلى أعلى.

ومستغلًّا لهفتها لفهم ما يريد، وقد أجّل تعريفها بنفسه إلى ما بعد هذه المقدمة الحميمة، وصل آخر الدرجات، وشرع يكيل التحايا إلى المديرة معرّفًا إياها بنفسه، وبأنه كان في المدرسة العام الماضي.

وفي خلال تحياته المسكوبة نهلًا منه، فجأه صوت من جانبه تملؤه الحفاوة والرخامة:

- أهلًا وسهلًا أستاذ عبدالرحمن.

حرّك صوتها ونعومته و ما يغشاه من حرارة شيئًا من عاطفته، فشعر بما أجبره على ابتلاع ريقه، ومنعه من الرد القاسي الذي هيّأ نفسه له، لكن دون أن يدفعه ليجيب أو يلتفت، فحافظ على موقفه مقابل المديرة، غير قادر أن يمنع نفسه من الاضطراب، ومفاصله من الارتجاف.

حتى إذا ما فرغ من كيل التحيات، استدار واتجه إلى حجرة المدرسين، غير محوّل وجهه إلى «لمى» رغم محاولاتها التقرب، وفي ذهنه يتردد السؤال:

– ترى ما أوقعت في صدر المديرة عنها؟ لا بد أنها ستتساءل عن سر هذا الجفاء العظيم؟ لكنْ أتسألها عن سببه، أم ستكتفي برمقها بنظرات مستفهِمة؟.

ثم دخل الحجرة، فوجد أكمل والطالب المغمى عليه وقد صحا، وبعض مدرسين قدامى وبعضَ الجدد، حيا أكمل فردّ عليه باقتضاب، فأزعجه كثيرًا حتى راح أفعوان الشك يتلوى في صدره:

– أترى وجد بعض أصحاب الفتن طريقًا إلى صدره فأوغروه علي؟

ثم جلس منبسطًا إلى بعض مَن رأى وعرف يحدّثهم، ويطمئنون عن أخباره، وما هي إلا بضع دقائق أقبلت بعدها «لمى» واندفعت سريعًا نحو الطالب وأكمل، فعاود صاحبَنا الاضطرابُ، وارتدى من جديد قناع العبوس القمطرير، بل فكر في مغادرة الحجرة، فذكر أن لم يجد أحدًا يجلس إليه في غيرها، وغشيه الارتباك حتى لم يعد يكلّم أحدًا إلا إن ابتدره بالحديث، لئلا يدخل في تودد لا يريد إظهاره في وجودها وإن لم يكن لها.

ومضى يتساءل في سرّه:

- منذ متى تهتمّ بالطالب إن أغمي عليه أو مرض؟! لم أعهد منها يومًا إحساسًا إنسانيًّا مهما صغر، والطالب هذا أصلًا ليس من طلبة الفصول المسئولة عنها، أفهي تريد محادثتي وإصلاح ما بيني وبينها؛ فقدمت تريدني أنا لا الطالب؟

ولئلا يسمح لها بمحاولة جديدة للتقرب، نهض يريد البحث عن حنان ليجلس إليها في حجرتها، ففاجأه أن دخلت في اللحظة نفسها حجرة المدرسين وألقت عليه تحية حارة.

- ما هذه المفاجأة السعيدة!!

تراخى على مقعده، وقد أجبر مرة أخرى على المكث حيث هو، فأعاد ارتداء لباس التحفز والشدة، ليشعر «لمى» أن وجودها مبعث لأعلى حالات التقزز والنفور لديه، فيما لفته أن أكمل لم يعدّل من مجافاته، على أنه لم يره يتجافى عن «لمى» على ما بينها وبين منذر- عدوه اللدود- من صلة.

وفجأة، التفتت «لمى» إليه في صرامة الراغب بتجديد الوصال مع حفظ كبريائها:

- أين تدرّس هذه الأيام يا أستاذ عبد الرحمن؟

تفجّر بركان غيظه المحتقن، فانطلق يضحك بسخرية قاتلة اهتزّ لها جسمه، محوّلًا وجهه عنها في تلوٍّ:

- لا أدرّس.

والتفت يبحث عمن يفتتح معه حديثًا يُسكتها به، فما أسرع أن قطعت بحثه بجحوظ عينيها وسؤالها اللهِف:

- تركت؟

وجد الفرصة سانحة مرة أخرى لإخراج ضغائنه عليها:

- لعن الله أبا التدريس وأمه، وأبا ساعة التدريس وأمها، ومن عرّفني بالتدريس، ومن دلّني عليه، ومن اخترعه.

ردد عباراته، وهو يشيح بوجهه عنها، ثم التفت إلى مدرّسة تجلس مقابله مفتتِحًا حديثًا ضاحكًا معها، قاصدًا إظهار تحوّله من أقصى التجهم مع «لمى»، إلى أقصى الانبساط مع الآخرين.

وراح ينقّل بصره في الجالسين محدّثًا فلانًا وفلانة، خالقًا جوًّا أشرك فيه الجميع ما عداها، فلم يلفت نظره ولا نظر مَن حوله بعد إذ شغلتهم أحاديثهم أن مضت على خزي تجرّر أذيالها، وما لمحها إلا وقد بلغت أقصى السلم الحجري تصعده متثاقلة، ومعالم الهزيمة مسيطرة عليها، فكست وجهَه معالم شماتة لا نهائية، وسكنه شعور النصر الذي أفرغ دلاء أيامه في انتظار ساعته.

أغرقته لذة الغلبة، فانقض من بعدها غول التعب على جسده، حتى أزاغ بصره وأسرى الاسترخاء عن غير إرادة في

أطرافه، فنهض يريد الخروج خشية أن يغلبه تعبه على نفسه، فلم يحسب أن يأتي انتصاره عظيمًا هكذا، سريعًا هكذا.

وفيما راحت الحافلة التي وجد لنفسه مكانًا بين راكبيها تمخر عباب الطريق الجبلي المملوء بالثكنات والتحصينات الأمنية والعسكرية، الواصل بين الضاحية وقلب العاصمة، كان شعورٌ مميز يفرض ظلاله على قلبه، شعور أن أحمال سنين من العذاب ألقيت عن كاهله دفعة واحدة، فعاد إنسانًا جديدًا.

لقد اختصر في «لمى» ومنذر شخوصَ من آلموه في حياته جميعًا، وإذ غلبهما وكبتها، فإن شخوص أولئك ومشاعره نحوهم قد هوت جميعًا من صدره ومن ذاكرته دفعة واحدة، فرجع عزيزًا مرتاحًا كيوم ولدته أمه.

وفي صدره راح يردد:

- اليوم خلقت خلقًا جديدًا، سواء شئت ذلك أم أبيته.

-٢٠-

احتفالًا بنصره المؤزر، قرر أن يخرج مع سحر في جولة مميزة، وعندما قابلها بجانب بيتها ليمضيا معًا، كانت كذلك منتشية متفائلة، فمنذ كالمها ليتفقا على الخروج، لحظت في صوته أشياء كثيرة عادت إليها الحياة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، فتطرح ظلال أشعتها الملوّنة على الأبنية والطرقات، والغروب سلطان متوّج لا يطيق أن ينافسه أحد على الأرض في وقته، تخرّ لروعته مجمل ملحقات الحضارة، ليعلي هامته فوقها جميعًا بقوة واحدة لا يغلبه عليها شيء، قوة الجمال.

أمسك صاحبنا بيد سحر، ومضيا يذرعان الطريق في الشارع الممتد بين الحي العريق الذي تسكنه ووسط المدينة، شارع طويل، يحمل اسم أشهر قادة العرب في التاريخ، ويمتزج على جانبيه كل حديث بكل قديم، ليلتقيا بكل معاصر من أبنية ومحلات ومنشآت، فيرسموا جميعًا على امتداد

ما يتجاوز الكيلو مترين، صورة بانورامية لمائة عام كاملة من تاريخ العاصمة العريقة، التي قدر لها أن تعيش بلادها في أتون حرب ضروس بات بعض الخلق يراها غير نهائية.

وجد الفرصة مناسبة في سيرهما الفرِح ليخبرها سبب سعادته، فيُطمئنها إلى أن ضباب الماضي لن يجد طريقه إلى أروقة نفسه من بعد:

- أتعلمين؟ لقد انتصرت اليوم، هزمت الماضي كله، وأعدكِ: لن تسمعي بتلك الأسماء القميئة التي طالما أرّقتك وسلبتنا سعادتنا.

لم تغب بسمتها، فاطمأن إلى أنها صدقته، ولم ترَ كلامه وسيلة للعودة إلى أحاديثه القديمة:

- جميل، وما فعلتَ بنفسك لتستطيع الوصول إلى ما أنت فيه!

فابتسم بثقة:

- لقد زرت المدرسةَ اليوم.

والتفت إليها بترقب متوقعًا انتفاضتها، فإذا هي صامتة تنتظر التتمة دون تجهّم، فتنفس الصعداء وتابع:

– قد فعلت الأفاعيل بلمى، ليتك رأيتِها وقد تقوّس ظهرها كأنما حدِب أو حُطمت فقراته تحطيماً، لقد قمعتها، قتلت شخصها في نفسي، ذبحته بيدي هاتين.

وأشار إليها براحتي كفَّيْه مازحًا:

– ألا ترين أثر الدماء؟

واستضحكا.

لكنها لم تهتمّ لتفاصيل كلامه عمومًا، وإن سرّت أعظم السرور لنتيجته:

– الحمد لله... قد كنت عازمة أن أقول لك من قبل: أرى أن تقصد المدرسة فتنهال على «لمى» وعلى منذر ضربًا، وعلى مُدرّسة التربية الدينية البلهاء تلك.

فاستغرب قولها المتهور، لكنه عطف على ما هو فيه:

– لا تصدقين مقدار الفرح الذي يملؤني، ربما لا تعرفين ما كانت «لمى» تمثّل لي، وما قيمة نصري الذي حققته عليها.. إنه إرث ثقيل قد وفيته، وولدت إنسانًا جديدًا.

وجدها غير مكترثة ولا مدركة ما يقول، فآلمه أنها عادت إلى سابق أمرها من عدم مبالاة أو إدراك للمعاني النفسية التي يكابدها، والمفاهيم العميقة التي يمثّلها له ذهنه.

وصمت منتظرًا أن تبتدره بحديث يدخلان به العالم المنشود من السرور بعد إذ طويا صفحة ما كان، لكن صمتها طال به كثيرًا.

حاول ابتدارها بحديث، بل بأحاديث، فلم ترد بغير كلمات مجتزأة أو صمت مطبق، حتى عاوده الحنين إلى القصص التي طوى صفحتها، فمهما يكن من أمرها، طالما صنعت مسوغًا لأحاديث يتفقان عليها أو يختلفان.

وصلا أحد المطاعم المشهورة، وعلى المائدة هناك كان الصمت من جديد سيد الموقف، حتى أحاط به غول الملل، وغلبته الحسرة فكاد البكاء يجد سبيلًا إلى عينيه.

– الساعة وقعت على الحقيقة عارية وليتني لم أقع، لقد كنت أفرّ إلى «لمى» ومنذر وأشباههما من جحيم أشنع منهم مجتمعين.

راح ينظر إليها فتحتدّ نظرته، فلا تفقه عنه ما يريد، ولا تعدّل من حالها، بل دار في ذهنه أنها تفقه ما يريد ثم لا تعدّل، إصرارًا منها وتصميمًا على ما هي فيه ومعاندة، يدعوها إلى أن يئس فانتفض إلى العودة.

وكما جلستهما كانت عودتهما، بجاد الصمت مرخى على المسير وعلى الطريق، وانقطاع الكهرباء المخيّم على الشوارع

الملاصقة بيتها يضيف إلى المقت مقتًا، وحتى وداعهما وولوجها عمارتها، لم تشعر بأي خلل فيما أتت وتأتي.

عاد يمخر الطرقات وحيدًا مفضّلًا المسير على ركوب الحافلة، مستعرضًا ما كان وما يمكن أن يكون، والصمت والخواء يعمّان الطرقات الرئيسة التي طالما ضجّت بالحياة، فتركتها الحرب وظروفها تخوي على عروشها ما إن يحلّ المساء.

– علي أن أعترف، وقد جاءني الدليل ساطعًا كالشمس، أن مشكلتي لم تكن يومًا في منذر ولا في «لمى» ولا في نادية، ولا في أشباههم أو أضرابهم، لكنني صنعت منهم شخوصًا حمّلتها أعباء غيرها لأفرّ من واقعي الفاتك، من أني إذ استطبتُ كلمات معسولة من فتاة لم أعرف عنها وعن أهلها ما يكفي، فقد حفرت لنفسي مهواة ضنكٍ وعذابٍ رحت أتردى فيها شيئًا فشيئًا، في عذاب ليس كمثله عذاب.

ومرة أخرى أمام الاعتراف القاسي غلبه تعبه، فاستغاث بحافلة من اللائي يطرقن حيه الشعبي الشمالي.

وعلى أنه أقرّ– صراحة– بفداحة مصيبة ارتباطه بسحر، فلقد خانته شجاعة التراجع، وما تزال كلماتها المعسولة تعمل عملها من نفسه، فقرر أن يزيد من تنازلاته لها مستسلمًا، متذرّعًا بقوله:

– قد خضت هذا البحر إلى منتصفه، فليس يضيرني من بعد أن يغمرني ماؤه حتى ترقوتي.

-٢١-

استجازت مديرة المدرسة لنفسها ثلاثة أسابيع إثر عارض ألمّ بها، فتولّت نادية- مرة أخرى- تسيير الأمور، غير مستجيبة لأقوال الطاقم التدريسي وأهالي الطلبة الذين يدعونها إلى تعديل أفعالها، بل استمسكت من جديد بحبل صويحباتها، مجدّدة سيرتها الأولى، ومسلمة كل شيء إلى منذر ولمى.

لكن الواقع في هذا العام الدراسي كان قد تغير، والطلبة الموغرة صدورهم قد قرروا ألا يتركوا وضع المدرسة على ما هو وهم ضحاياه، ولا سيما تصرفات «لمى» ومنذر وعقوباتهما المستطيرة، حتى إذا عادت المديرة من إجازتها فوجدت ما وجدت من حال لم ترضها، باتت أكبر معين للطلبة الثائرين، ليقع الشقاق الأكبر داخل الطاقم الإداري.

وفيما يكلم صاحبُنا حنانَ مرة، قالت له:

- أعاننا الله، فملفات المدرسة باتت في أيدي جهاز الرقابة، وجماعة الإدارة يحورون ويدورون، ولا تقرّ بهم أرض.

فتلمّظ شماتةَ وهو يرد:

- أإلى هذه الدرجة؟

- نعم، فالمديرة رفعت بيديها الملفات إلى الجهاز؛ لأن الأسابيع الثلاثة التي تغيبتْها شهدت من البلايا ما لا يشهده عام كامل.

- وعلى من وجّهت أكثر الشكاوى؟

- على منذر، ومن بعده على «لمى»، ومن بعدهما على نادية لأنها لم تردّهما عن غيّهما.

وراحت الأخبار تترى من بعد، عن الملفات التي راحت تُفتَح، والمشاكل التي أخذت تكبر وتتضخم، فيما الطلبة يسعّرون النار شكاوى وإفشاء للشائعات عن حال المدرسة وعلاقات أفرادها، ولا سيما علاقة «لمى» ومنذر، متسائلين بمكر عن سر تعلق الاثنين ببعضهما، حتى لا يكاد يُرى أحدهما إلا مع الآخر، وعن سر تجليل «لمى» النافذة المطلّة من حجرتها على ممر الطلبة بورق مقوّى سميك.

ومع تفاقم الشكاوى وتدفّقها، تدخلت جهات عدة في شأنها للتحقيق، منها الرقابة، ومنها مديرية التربية، ومنها وزارة التربية، بل إن جهات أخرى أكبر من أولئك جميعًا كانت تراقب ما يجري خشيةً أن وراءه دوافع أعمق مما يلوح للناظرين، وقد تجاوز «لمى» ومنذر بعقوباتهما ونمط تعاملهما

مع الطلبة ومع بعض الطاقم التدريسي، ومع المديرة إذ أرادت منعهما من بعض أفعالهما ومن جلساتهما المثيرة للشبهة، تجاوزا كل متعارَف عليه، رغم حساسية الظروف التي تمرّ بها البلاد، وظلال الشكوك التي تفرضها على تصرفات كالتي يأتيانها.

وأما صاحبنا المراقب بإمعان من بعيد، فأخذ شعوره بالشماتة يتبدّل شيئًا فشيئًا ليغدو شعورًا عميقًا بالخشوع، وهو يرى بعيني بصيرته يدَي حكمة عظمى تحوك كل ما جرى ويجري، ثم تلوّح له أنه المقصود الأول منه، فيستنبط أن ذلك ليس انتقامًا إلهيًّا ممّن أذاقوه العلقم فحسب، بل تنبيهًا وتأديبًا وأشياء أُخر، وذهب به فكره الميتافيزيقي لا إلى سبب ما جرى، بل إلى ما جرى لو لم يجرِ، فماذا لو لم تفعل «لمى» ومنذر به ما فعلاه؟ أما كان الساعة في صفهما ينافح عنهما بكل ما يملك؟ أما كان سيساعدهما بالشهادة لصالحهما ولو زورًا؟! ويعينهما ويبالغ في الإعانة؟

أما كانا يمهدان بجلستهما المشئومة لجعله في صفهما كلية؟ فلا يرى إلا رأيهما ولا يبصر إلا ببصرهما، ولا يلقي سمعه إلى أحد سواهما؛ فيتسنى لهما أن يستخدماه كما يريدان، لكنّ القدر استنقذه في اللحظة الأخيرة، فضلّا طريقهما في أسلوب إقناعه، وقلباه ضدّهما من حيث أرادا الاستيلاء عليه.

-٢٢-

كلما اقترب موعد الزفاف، تفاقم قلقه وخوفه، وندمه.

بلغ صراع الأضداد من نفسه مبلغه، وتجاوزت الخلافات بينه وبين سحر كلَّ حدٍّ مقبول، فلا هي تقنع أن الحال التي تراه أمسى عليها هي الأصل لديه، ولا هو يرتضي التخلي عن صفاته ومبادئه، مع خلاف عميق، مبني على نظرة كليهما إلى الحياة.

وأمام الاختلاف الذي يبدو غير قابل للتصاغر، تبدّى ملاذُ سحر في أحد أسلوبيْن، فإما توغر صدره غيرة عليها، وإما تميل إلى الضغط عليه بالانفعال الشديد.

وكلما استعملت معه أحدهما انفجر غضبه، وهمّ بأن يسلمها هداياها ويجهر بكلمة الطلاق، فتسارع إلى استرضائه بكل ما أوتيت من قدرة، ومن ورائها والدتها تلومها وتعتذر، ووالدته تهدئه وتدعوه إلى العمل بالمعروف، فتهدأ الأمور

قليلًا، ويعودان إلى بعض الوصال، ذلك أن إحساسه بالوفاء لها، وسروره بكلماتها المستطابة التي تغدق عليه بها الغزل والتكريم، كانا يعودان فيحجزانه عن الإمعان في القطيعة، بيد أن فوق ذينك سببًا عميقًا ثالثًا، كامنًا في وعيه الباطن، وهو الأصل من وراء إضرابه عن القطيعة كلَّ مرة إذا ما اعتذرت سحر إليه.

كان في الماضي كلما تقرب من زميلة في الجامعة بنية الارتباط، وجد صدودًا ونفورًا، وأحيانًا قطعًا لجميع الأواصر، لتقول له تلك الزميلة أو ليكتشف من بعد، أنها مرتبطة بعلاقة حب تعود إلى زمن بعيد، وأحيانًا إلى بدايات المراهقة، حتى وصل به تفكيره إلى أن إيجاد أي أنثى يرتبط بها، جميلة كانت أم قبيحة، متعلمة أم غير متعلمة، خلوقة أم غير خلوقة؛ شيء يقارب المستحيل إن لم يكن عينه.

وكلما أقبل على مشروع جديد، ولو لم يكن له محل غير ذهنه، ذكر أن أكثر من عرف من إناث أو ربطته بهن صداقة، كنّ مرتبطات بعلاقات كتلك، حتى ساد قلبه شعور طاحن: أن المرء إذا أراد زواجًا؛ فعليه أن يبحث عنه من أيام الصبا، لأنه من بعد لن يلقى.

وما أكثر ما لقي فتيات عليهن سيما ما يحب، فيرجو خيرًا، ثم ما أسرع أن انتكس رجاؤه متحطمًا على صخرة الواقع .

لكل هذا بات يرتضي أي فتاة تبادره بكلمة تودد، أو تلقي إليه ببسمة ذات مغزى؛ فمواقف الصدود والشدة التي تلقّاها، وسماعه المتكرر كلمة: أنا مرتبطة، ثم رؤيته قائلتها في مشهد حميمي مع حبيبها، كل ذلك ترك في نفسه أثرًا عميقًا، بل رديئًا غاية الرداءة.

وفي دخيلته طالما اعترف بقول صريح:

– لو تُركت لي الحرية، لما فكرت لحظة في ندى ولا في سحر ولا في أضرابهما، فليس فيهن ما يحرّك شيئًا داخلي، لكني إذ عدمت غيرهن، وتحطمت سقوف طموحاتي مرات، وجدتني مضطرًا إليهن.

وبات مشهد أي فتاة تلقي إليه ببسمة تودّد، أو تبادره بأسلوب ملاطفة، يدفعه إلى قبول هذا منها لهفًا بعدما لقي من معاول ما فتئت تنحت جدار ثقته بنفسه إلى أن تركته وطيئًا هشًّا.

ولقد جاءته سحر من بعد تمشي على إعجاب وعلى تقرّب، فكيف لا يرضى وكيف لا يقنع، وكيف لا يتهافت وكيف لا يرتمي في حضن قلبها! وما له ولسماجتها ولغربتها عن الدنيا وقلة معرفتها بالأصول وقلة معاشرتها الناس! ألا يكفيه أنها أنثى، أوَ لا يكفيه أنه يمكنه أن يجلس معها ويحضر المحافل فيراها فيمن يراها بعض من صرفنه عن بابهن بلؤم، فيعرفن

أنه لم يعدم من ترضى به وتحبه، ألا يكفيه أنه بها مزّق طيوف أولئك اللائي طالما آسينه وزرعن الشوك في صدره وقلبه.

لهذا قرر- غير مرة- أن يحتمل منها ما يرى، ولهذا أيضًا- وهو لا يعلم- كان البركان يتلظى في صدرها وقد استشعرت منه في أقواله وبعض تصرفاته ما يدور في دخيلته، فوقع عظيمًا على كبدها، وجرحها عميقًا في صدر كرامتها، ودفعها إلى أن تتجنب ولوج أي مجلس عام، خشية أن يكون دافعُ صاحبنا لحملها إليه هو تلك المباهاة وذلك الاسترداد للكرامة.

أما هو، فالكثير يمور في صدره منها ومن أفعالها.

كان يراها تأتي الفعل ونقيضه، فيحار في أمرها، إلى أن هداه تفكيره المتسلسل إلى عوار عظيم في تربيتها وفي بيئتها أوصلها إلى ما هي عليه، سببه الأول والدتها التي طالما رأى فيها نموذجًا خالصًا لعامية مبتذلة قلّ مثيلها، ولانفصام عجيب تتباهى به عن الواقع وعن جميع المشاعر والطبائع الإنسانية، وكلتا الصفتين تسرّبتا منها إلى أبنائها، وفيهم سحر.

وما أكثر ما كان ينظر في حميه ويطيل النظر، فيرى على وجه الكهل شبه المعقد تعاريج حزن عظيم، يستشعر أنه مثيل حزنه، وأن سببهما واحد، بل بات يتناهى إليه من أنحاء تلك التعاريج والتجاعيد في الوجه ذي الملامح الحانية صوت عميق يخترق أذنيه وقلبه:

- انج بنفسك قبل أن تقول: لات ساعة مندم.

أو يتراءى له في عينيه إذ ينظر فيه ملمح خاص، يحذِّره به بلغة غير لغة الشفاه من أن يلقيٍ ما قد لقي من قبل، فيصير إلى مثل ما صار.

كان عبد الرحمن يذوق معنى الأسر حقًّا في كنف سحر، يذوقه كما لم يذقه في شهره الأسود الذي شهده في الصيف، حتى بات يحنّ فيها إلى تلك الأيام على ما لقي وإذ يراها أهون مما بات يقاسي غمراته.

- كنت هناك أعرفني بريئًا، وأعرف أن لبثي لن يطول، فتتلهف نفسي للفرح في كل لحظة واثقة من قدومه، أما الساعة.. فأراني في سجن لا نهائي يحاصر كلَّ جميل في داخلي ويحتل كياني ويحصي علي أنفاسي، وفوق كل هذا أرى فراري منه مستحيلاً.

-٢٣-

راحت الأخبار تتوالى بسرعة جنونية من جهة المدرسة، عن حملات التفتيش وزيارات جهاز الرقابة والجهات المسئولة في وزارة التربية، وعن التحقيقات التي افتُتحت، وهدفها الأكبر منذر ولمى، لكنها من بعد توسَّعت فشملت من ورائهما كلَّ من يتستر عليهما ولا يحزم في وجههما، من إداريي المدرسة ومدرسيها.

لكنّ الاثنين لم يحاولا مداراة العاصفة ولو قليلًا وهما يعلمان أنها قادرة على قصمهما، وأن الإجراءات التي قد تطالهما لن يستطيعا مجابهتها مهما ملكا من قوة وتدبير، عدا تشويه السمعة الذي جعلهما لُوكة في ألسنة أهل المنطقة وموظفي الرقابة ومديرية التربية، بله الطلبة وبعض مدرسي المدرسة، بل أصرَّا على ما هما فيه وبالغا في التحدي، ليزداد الموقف بهما وبالمدرسة كلها تعقيدًا.

ثم زادا فتصرفا بدونكيشوتية بالغة، وزادا تسعير النار على نفسيهما لتتزاحم من فوقهما أسراب البلايا، إذ سعت

لمى إلى عقوبة من اشتكوا عليها من الطلبة جميعًا وأضافت إليهم زملاءهم من طلبة صف دراسي كامل يربون على المائة، مفروزين على ثلاث شعب، فسجلت لهم درجة الصفر في مادة السلوك والأخلاق التي تتولى أمرها، فقامت الدنيا كلها ولم تقعد، ووجدت الجهات المسئولة عن التحقيق جميعًا في فعلتها دليلًا دامغًا على كل ما قيل ويقال. وكان أعمق أسباب الخلاف الأخيرة طالبٌ مجتهد على علاقة طيبة بأكمل، فنقم عليه منذر ومن بعده لمى لعلاقته تلك وحدها، على أنه متمسك بأهداب الخلق القويم لم يُعهَد منه فعل يخالف قواعد السلوك والأنظمة، إذ حسبا أكمل قد يستغله ضدهما، وانطلقا يحاسبانه على ما جال في ذهنهما وإن لم يأتيا بالدليل، ويتحيّنان الفرص أو يخلقانها لأذيته، حتى تفاقم الضغط عليه وضاق وأهله ذرعًا بما يجري، فمضى بجمع كبير من رفاقه يشكون الحال إلى مديرية التربية، ليفاجأهم هناك أن يشير الموظف المسئول عن الشكاوى إلى ملف كبير أمامه قائلًا:

- ذا ملف خاص للشكاوى على طاقم المدرسة الإداري.

وإلى ملف آخر لا يقل عن الأول حجمًا:

- وذا ملف خاص للشكاوى على الأستاذ منذر وحده.

ودارت من جديد تحقيقات كبيرة، وفُتحت ملفات تلوها ملفات، ولا سيما الملف المثير للجدل الذي يخص علاقة لمى بمنذر، وقد تقدّم غير ما طالب بشهادات عن وقوع أعينهم

على مشاهد غير لائقة إذا ما اتفق أن يلجوا إحدى حجرتيهما بغتة.

وتكشّفت من بعد، مخالفات متراكمة، شملت معظم جوانب النشاط في المدرسة، فحوّمت طيور الشؤم فوق رؤوس نادية وزمرتها، لكنّ «لمى» ومنذرًا أبديَا من المعاندة ما لم يُبدِ غيرهما، قانعَين كل القناعة أنهما لم يكونا يومًا إلا على الصواب المطلق، فسهَّلا- من حيث دريا أو لم يدريا- على زمرة الإداريات أن يلقين عليهما حَمولة الذنوب جميعًا، رافعاتٍ أيديهن متبرّئات.

وكانت العاصمة قد بدأت تستردّ ثوب عافيتها ولو مرقّعًا، منتعشة بعض الانتعاش، مُسلمةً أمرها إلى أن الحياة يجب أن تستمر ولو وسط الدمار، يعينها أنها غدت بمنجاة جزئية من أحداث الحرب العسكرية، بعدما أمعن النظام في تحصينها، فما عاد في إمكان مقاتلي المعارضة ولوجَها بالطرق التقليدية.

وهي إن تكن نجتْ من الحوادث العسكرية الكبرى، فلم تنج من الغلاء الفاحش غير المسبوق، ولا من لجوء النازحين الكثيف من مناطق المعارك حاملين أحزانهم ومعاناتهم، ولا من انهمار القذائف والصواريخ التي باتت وسيلة المعارضين الوحيدة لكسر جدار تحصينها المنيع.

ومع عودة تدفق الحياة إلى المدينة التي كانت صاخبة ذات

يوم، بدأت بعض مشاعر الحياة الطبيعية في العودة إلى أهلها؛ مرسخة نظرية أن الإنسان يستشعر في ظل الأمن وجودَه كما لا يستشعره في ظلّ غيره، وإن يكن أمنًا منقوصًا تخفّه غيلان القلق.

وكأيٍّ من أفراد الشعب المعاني، جددت عودة الحياة إلى بعض طبيعتها بعض المشاعر والأفكار لدى صاحبنا، فغدا يفكّر بإمعان في مآل قصته مع سحر، وفي ما يأتيه من أخبار من جهة مدرسته القديمة، وتقلبات أمرها، وهو يرى بيارق نصره تلوح حقًّا فوق بنيانها بأيدٍ غير يديه.

ورغبة منه في مزيد تقصٍّ بشأنها، وربما في مزيد شماتة، قصدها والعام الدراسي يُرخي سدول ختامه في زيارة مفاجئة، فلحظ الاضطراب يغشى المكان، ولحظ اهتمام عموم الإداريين بمجيئه في همهماتهم ونظراتهم، ما عدا منذرًا الذي تجاهله على أنهما تقابلا وجهًا لوجه، وقد كان في ودِّ صاحبنا أن يبتدره بتحية أو محاولة كلام، ليرد عليه مرة أخرى بقسوة فيتشاجرا، فما يزال في أعماقه شوق عظيم إلى مزيد انتقام.

دخل على حنان حجرتها، فرحّبت به ما وسعها الترحيب، ثم جاءته بالإجابة من قبل أن يسأل:

– الكل مشغولون بحملة الرقابة التي طالت الجميع.

ثم بسمت بنشوة:

- ما عداي أنا.

سأل متصنعًا الاستغراب، وفي قلبه استعذاب الشماتة:

- طالت الجميع؟

- لم أقصد أنها طالتهم عقوبة بل تحقيقًا، أتصدق أن فيما اكتُشف قضايا تتصل بالفساد المالي؟

فدهش:

- فساد مالي!؟ في المدرسة هنا؟

- نعم.. في المدرسة هنا.. نادية وزمرتها يُسألن في هذا الآن.

غلبته الحيرة، فهو على شكواه منهم ونقمته عليهم، لم يحسب المشاكل تتعدى الإهمال وانتفاء المسؤولية، ولم يتوقع يومًا أن تدخل هذا المنحى على قلة موارد المدارس وصعوبة التجاوز فيها، فالتفت إلى حنان بتقزّز:

- أكنا نقيم على هذه الهضبة من القذارة دون أن ندري؟

فابتسمت بسخرية:

- غيرك كان يدري، لكنك كنت تؤثر التغافل.

فأحنى رأسه بتسليم:

- التغافل واجب حين يغدو التفكير مجلبة للتعاسة والذهول، ثم إن تعود معرفة الشر يجلب معه شيئًا فشيئًا تعوّدًا للشر نفسه، فيغدو معتادًا، ثم مقبولًا، ثم محبوبًا، وذلك ما لا

أرضاه لنفسي.

فحوّلت الحديث إذ وجدته دخل أعماق فلسفة لا ترغب بخوض غمارها:

- فكيف إن أتيتك بخبر مميّز؟

- هاتي.

- علمت مؤخرًا أن منذرًا كان يفتش بين المدرّسات عن عروس لأخي زوجته، لكنّ كلّ من كلمهن لم يرضين، منهن من رفضن بداءة، ومنهن من رفضن بعد أن رأين الرجل.

راح يضحك بسخرية فأسرعت له بالتتمة:

- لكنّ المشكلة في أنه هاجم بل وبّخ من رفضن، وقال لكل واحدة منهن إنها أول من يرفض الشاب.

راح يضرب فخذه بكفه منفعلًا، ثم استغرق في ضحك عميق:

- أو في الدنيا كلها من يوبّخ من لم ترتضِ زوجًا من طرفه أو يوجه إليها أي انتقاد؟ ألم يسمع في الأمثال أن الزواج لا يكون إلا بالاتفاق!؟

وصمت لحظة ثم أكمل:

- هذا أكبر دليل أن الشاب هذا لم يقبله أحد، فهو- ولا شك- كأخته وزوجها.

ثم أسرف في ضحكه ليطلق تعليقه الأخير:

- أسرة مطاريد.

استضحكت معه، ثم حوّلت دفة الحديث:

- حدّثني عن خطيبتك.. ما آخر أخباركما؟

تهاوى على مقعده يائسًا بائسًا، فسؤالها قد جاءه كما صفعة قاسية تعيده إلى ما يجتهد في الهروب منه، وكلما رأى منفذًا للفرار ارتطم بما يردّ إلى سردابها المعتم.

كانت أيامه الأخيرة كتلة من سواد، ركامًا من لهيب، وقد بلغت طرق التفاهم مع سحر جميعًا نهايتها المسدودة، بعد أن تحزّبت إلى أهلها وأجوائهم وأمعنت في التحزّب، بل باتت تتخذ تحزّبها وسيلة لاستفزازه، ومن ورائها أمها لا تنصرها، لكنها كذلك لا ترى غرابة فيما تأتي ابنتها؛ لأنه من نسيج ما اعتادت وأقامت بنيانه في بيتها.

بيد أن النقيض ما فتئ يلوح له في حميّه الصامت المقعد، وتؤكّده أحاديث الجميع عن ماضي الرجل المشرق وفنّه في إدارة الأحاديث واصطناع الأجواء السارّة حيثما حلّ، حتى لاح لصاحبنا أن في دماغ هذا الرجل عقلٌ مفكّرٌ، وفي قلبه إحساس إنسان، وتلك تبدّت له مشكلة أخرى لا حلًّا.

فإن يكن صاحب العقل والقلب قد آل إلى ما آل إليه حميّه بعد إذ عاش في هذا الجو؛ فما مصيره هو من بعد؟!

-٢٤-

حملتْ أوائل الصيف معها شيئًا جديدًا، نابتةً نبتت بين صاحبنا وسحر لم يحسبها تطرأ يومًا على ما بينهما، وإن يكن أنكر على نفسه إحساسها؛ فما بات يلوح له ما كان ليداريه الإنكار الساذج.

وأقبل رمضان من بعد في أوج الصيف، فجفّت في نهاره الحلوق، وضاقت النفوس، وزادت ساعات تقنين الكهرباء الطويلة القيظ قيظًا.

استمسكت سحر بهذه الذرائع لتسوّغ تجنّبَها دعوته إلى الإفطار مع أهلها، فلم يقنع بحجّتها وإن استعصم بتغافله، بل راح يقينه يزداد يومًا فيومًا أن وراء الأكمة ما وراءها.

ومن بعد جاء العيد باهتًا له ولها، فلم ترتضِ الخروج معه إلا قليلًا، وفي ذلك القليل كانت تصبّ إلحاحَها عليه صبًّا في الطريق، مريدة إخراج أضغانها لتغيظه فينفجر عليها، ومن وراء ذلك في قلبها عشرات أسباب الغيظ، تريدها أن تحل به كما بها، فيتأبّى ويمعن في التأبّي أول الأمر، ثم تغلي به مراجل

صدره فينفجر انفجاره الكبير. وتستطير الخلافات وتكبر، فيتدخل الأهل من جديد، لكنْ.. دون أن يأتي تدخّلهم بثمرة حق كما كان من قبل.

وكان آخر أيام العيد..

عرض عليها زيارة عمته (أم فاضل) الطاعنة في السن، أكبر مَن في الأسرة عمرًا، وأعلاهم قدرًا، وهي تسكن حيًّا متطرفًا عن المدينة، نمطه العام بهاء وبعض البذخ، فبات موئل علية القوم وسفارات الدول، آخذًا من الحضارة بأحسن ما فيها، بعيدًا عن مساوئها.

وبيت العمّة في عمارة فَرِهة ابتُنيت لها ولأولادها، من ثلاثة طوابق تسكن آخرها، في شقة تتصدرها قاعتان كبيرتان، إحداهما للجلوس واستقبال الأقارب الأدنَين، والأخرى لاستقبال الأضياف، مفروشة بأرائك فخمة ومقاعد موثرة، تصطف التحف للجالس فيها عن جانبَيه كأنما تؤدي فرضًا من التحيّة.

جلس صاحبنا في قاعة استقبال الأضياف غيرَ منشغل بما فيها لتعوّده رؤيته، لكنه لحظ عيني سحر تذهبان مغرّبتين ومشرّقتين في أسفار وراء كل ما فيها، وراء المقاعد والأرائك، والجدران المزخرَفة واللوحات المعلّقة، بل وراء الخادمة الآسيوية التي فتحت لها ولصاحبنا الباب، ثم دعتهما إلى الدخول.

ثم حضرت أم فاضل متوكئة على عكازها، فنهض صاحبنا

لاستقبالها، همتها الناهضة التي كسرت بها أغلال السنين ما تزال رائدتها، ورصانتها وتمسكها بأهداب المحافظة لا يزالان عماد شخصيتها المميّزة، فأحرجه أنْ توقفت لمرأى سحر توقّف من رأى ما لم يسرّه، ثم لبثت لحظات أحسها دهرًا، تصافحها، لتتخذ من بعد مجلسها مقابلها متهيّئة لاستكناه شخصية ضيفتها.

سُقط في يديه، فلقد كان يعلم تضاد الشخصيتين، لكنه لم يحسبها ستصطدمان باكرًا هكذا، منذ لحظة اللقاء الأولى، ولعلمه بثقل قريبته ورصانتها، وبتعود سحر التحلل من القيود؛ فقد خشي مما سيخلّفه تواجههما، ومن ردة فعل سحر التي سيتلقّاها آخرَ الأمر.

وكما توقع، انفعلت سحر، وأحسّت بما وراء نظرات قريبته التي لعبت فيها الشيخوخة لعبها، فأخرجتها عاريةً من كل ستر، ولشدة انفعالها راحت تخلق أحاديث تحاول بها التسرية عن نفسها، فإذا ما سنحت سانحةٌ قرصته أو غمزته ليقوم، دون جدوى، فلا أم فاضل ملكت زمام نظراتها وما وراءها، ولا صاحبنا قام مُنهيًّا الزيارة، وقد ملكت صدره رغبةٌ عارمة بتعذيبها وكيّها بنار أهله كما كوتْه مرارًا بنار أهلها، ورغبة أقوى بتلقينها درسًا في الرصانة وأصول المجتمعات لم تُلَقّ مثله في بيتها، حتى إذا ما اكتفى، وعمَرَ قلبَه شعورُ إشباع غايته، نهض مودّعًا قريبته بسلام حارّ، كأنما يشكرها على ما

نصرتْه به، متخذًا الأهبة في نفسه لما سيلقاه من سحر، موقنًا أنها ستفرغ عليه ما احتقن في نفسها خلال الجلسة.

مضت هادئة أول الأمر، تؤامر نفسها في السبيل التي تسلكها للتشفي، حتى إذا ما غادرا البناء بدأت أولى خطواتها لتنفيس ما تضمر:

- أما رأيتَ إلى هذا المنزل الفخم! وهذا النعيم المقيم! كذا فلتكن الحياة وإلا فلا، رغبة في التجديد والتطور ومواكبة العصر، لا اكتنان في الجحور وذكريات الآباء.

فهم عنها سريعًا ما ترمي إليه، فقرّر أن يضبط نفسه لائذًا بفقه التريّث والرزانة، شاغلًا نفسه بجو الليل الساحر ونسائمه العذبة، المحمَّلة برائحة الياسمين المنتشرة أشجاره في أقبية العمائر الراقية.

استفزّها بتغافله، فراحت تمعن في الضغط عليه عساه ينفجر فتسعد بإغاظته، ولأنه يعرف ما تريد؛ صمّم ألا يُنيلها إياه، حتى إذا ما قارب الانفجارَ، سرّه أن مرت بجانبه حافلة من اللائي يصلن وسط المدينة، فأسرع بالإشارة إليها، وألقى بجسده التعِب داخلها.

وكان ما يرغب، صمتت سحر طوال الطريق في الحافلة، وصمتت من بعد حتى قاربا بيتها، وإذ أوشك أن يودّعها راحت تلحّ أن يصعد معها إلى بيتها، فتمنّع خشية انقطاع المواصلات وقد تأخّر الوقت، لكنها أصرت موحيةً إياه أنها

ترغب في تكفير خطئها، فاستجاب آخر الأمر راضيًا أن يستوعب اعتذارها ولو جزئيًّا.

دخل المنزل الذي طالما رآه قطعة من قبر قيّضت لتعذيبه، فوجد فيه بعضًا من أثر الحياة على غير العادة، وإذا جمعٌ من أقارب أم سحر قد أتوها في زيارة العيد، فجلس إليهم فرحًا بتجدّد الحياة في البيت الذي كان يخيّل إليه أن رخًا عظيمًا قد ضرب بأطنابه عليه ليمنع أي تجلّ لنور أو حياة. وأخذ يتحدث ويلقي الطرف والنوادر، وقد وجد في الضيوف ما عُدم في أهل سحر، لكنه إذ نهض يريد العودة إلى بيته، تبعته سحر إلى خارج المجلس، وما إن جاوزاه حتى انفجرت عليه بانفعال شديد:

- ما هذا الذي فعلته؟ أمعقول ما صنعت!!

أجابها مذهولًا:

- ما فعلت؟

- أتعرف أن الطرف التي ألقيتها تمس صفاتٍ فيهم فبدوت تسخر منهم؟

- كيف وأنا لم أرهم قبل الليلة؟

- هذا أقبح، سيحسبون أننا لقّنّاك هذه الأقوال لتطلقها عند حضورهم.

جاءته قسوتها مباغتةً في اللحظة التي حسب فيها أن مشكاة

أمل انفتحت بينه وبينها، فإذا هي تنتفض جاهدة لتسدّها.

مضى يسحب نفسه سحبًا نحو باب المصعد، وقد أفقدته قواه غضبتُها وإصرارها على مفاهيمها التي تقمعه بها، مفاهيمها التي ما سمع بها قبل أن يعرفها ولا قرأ عن مثلها.

بعد أن ضغط زر طلب المصعد جاءه صوتها من خلفه، صوتها القديم، صوتها الذي عاهدته به على الرباط أول مرة، والذي سمع به ذات أصيل كلمة: أحبك.

التفت فلقي على وجهها إشراقًا حزينًا تملؤه اللهفة، إشراقًا لا يشبهه إلا إشراقها الذي رآها عليه يوم خطبتهما، لكنّ الفارق بينهما كبير.

- عبد الرحمن!

فانتزع لها بسمة تعزية من تضاعيف ألمه، جعل فيها بعض الصفح وبعض الحب، لكنّ دخيلته ضجّت بإحساس غريب، أن هذه كلها ليست إلا سكرات الوداع، وأن الحب الذي اشتعل الساعة رغم المرارة، ما هو إلا الرمق الأخير الذي يليه الهباء أو العدم.

وقطعهما عما هما فيه وصولُ المصعد.

-٢٥-

في طريق عودته مضى متهالكًا، حتى إذا وصل الشارع الرئيسي المخترق الحيّ الشعبي والمنقسم فرعين أحدهما للذهاب والآخر للإياب، وعلى جانبيهما المحلات التجارية التي أغلق أكثرها أبوابَه لتأخر الوقت، أخذ ينظر في الحافلات الخارجة من الحي فلا يرى بينها ما يوصله إلى بيته أو إلى قريب من بيته، وعلى أن تعبه بل انهياره قد تملّكه، فلم يستطع أن يقف في مكان بعينه؛ لئلا يتهاوى به جسده من ثقل ما أصابه، وأخذ يجبر نفسه على المسير.

رنا إلى السماء فراقه صفاؤها، كان يعرف سماء هذا الحي منذ مراهقته، وله معها ذكرياتٌ عِذاب، السماء لم يتغير مشهدها، لكنّ نفسه التي بين جنبيه تغيرت كثيرًا.

- في أيام مراهقتي، ما كنت أعرف أمثال سحر وأهلها، ولا أشباه «لمى» ومنذر، ولا كثيرًا غيرهم ممن لقيت، كنت شيئًا آخر، وليتني بقيت الشيء الذي كنتُه.

لفته نور أخضر تأتلق به مئذنة المسجد الكبير المتوسّط

الشارع، المسمى باسم أشهر علماء البلاد في عصره، كان نورًا مشعًّا مستطيرًا يبدّد- وحده- ظلمة الشارع الطويل، وقد أقفلت المحلات أبوابها.. ومن حيث لم يحتسب سكنه عزم عظيم، وشوق ولهفة، فلهذا المسجد في صدره ذكريات ذات حنين وهاج، وقد كان في أيام مراهقته يقصده كثيرًا، وكان لآية (الله نور السموات والأرض) المنقوشة وسط زخارف على جداره الخارجي أثرٌ في نفسه عميق، طالما أخذه في رحلات صوفية وراء الكون ووراء المدى، وعلى حين غرة تملّكته الذكرى، وحداه عزمُه ليقف حيث كان يقف في الماضي، فيتأمل مشهد الآية، كأن منجاته وتطهير روحه لن يتحققا إلا بذاك.

دبت الحياة في أضلاعه المتيبّسة من الألم، وتخلّقت به همة شغلته عن الطريق وعن ما لقي من سحر، بل تلاشت الدنيا كلها من حوله، وما بقي إلا المسجد، وهو، والطريق بينهما.

خطًى عجيبة أوصلتْه مقصده بأسرع مما كان يحسب، كأنّ يدًا إلهية احتملتْه من حيث كان فجعلته مقابل باب المسجد، لتلوح له الآية في لبوس من لازورد: هنا المبتدَأ، وهنا المنتهى، وإليه المصير.

سكنتْه طمأنينة رائقة، بها نسي ما كان يجول في خاطره، وإذ جاءت الحافلة تتهادى نحوه من بعد، كانت القناعة تملؤه أنها مرسَلَة إليه بتدبير إلهي، وكلّ ما حوله وما أمامه نور في نور، نور من القبس الذي أضاء له بآية (الله نور السموات والأرض).

-٢٦-

كان عمّ صاحبنا الأكبر محل لقاء بينه وبين سحر، شخصيةً اتفقا عليها بينهما كما اتفق بين أكثر أفراد الأسرة، وكما كان أكثرَ أولئك اهتمامًا بصاحبنا وخطبته، كان أكثرَهم حرصًا على تقديم الخدمة ما استطاع إليها سبيلًا، وإذ أزف الزفاف، أعدّ هدية للعروسين، لوازم حجرة النوم من سرير وأرائك وخزائن.

أخبر صاحبنا سحر بالهدية ومُهديها، واتفقا على يوم يعاينانها فيه، ومعهما والدتاهما، فصادف اليوم عند حلوله أقصى حال التشنج والجفاء لدى سحر، بعد ثلاثة أيام من انصرام عيد الفطر، وقد سكن الاحتقان رأسها فبات كثعبان ينفث نارًا.

فلما حانت ساعة اللقاء، تعمّدت سحر أن تخرج وأهلَها من بيتهم بعد حلول الموعد بزمن، لتتأخر في المواصلات غائظةً الجميعَ، وعلى رأسهم عمّ صاحبنا، مجتلبةً معها أخاها صبحي لما تعرفه من عدم مبالاته ورعونته، فقد أرادت انتقامًا

عارمًا من الجميع، وفي الطريق ما برحت تلقّن أمها وأخاها دروسًا في التأبّي والمناكفة يُظهرانها حين اللقاء، فيتقبّلان منها كلامها راضيَين مذعنَين.

استشعر العمُّ معاني الإهانة والإغاظة كما لم يعتدها في أسلوبهم وتأخرهم، وقد كان دومًا صاحب مكانة متلفعًا بعباءة هيبة لا يجسر أحد على خرقها خرقًا بسيطًا، ولاح له تعمّدهم ألا يبالوا بمكانته فاستشاط غضبًا، وهو رجل رصين إذا ما غضب بلغ غضبه مداه كما انبساطه، فاستطار وأوجع، ولا يرتضي بحال أن يُتجاوَز قدره أو لا يؤبَه بمكانته، فلما رأى ذلك الساعة متعمَّدًا، آل غضبه سخطًا عارمًا.

وصلت سحر وأهلها بعد قريب من ساعة من موعد اللقاء، فهال صاحبَنا الذي وقف لاستقبالهم في الطريق مرأى صبحي معها ومع والدتها، وأدرك ما وراء الأكمة على الفور، فاستطار الرّوع في نفسه مما ستؤول إليه الأمور، ولما قاربهم محييًا قابلوه بجفاء وتجهّم، ثم مضوا ثلاثتهم نحو محل اللقاء على عزم وشدة.

تسارعت ضربات قلبه، حتى إذا دخل بالثلاثة المجلسَ على أمه وعمه، راح الاثنان يتكلّفان التصبّر على ما بهما من غيظ لئلا يسيئا الضيافة، لكنّ التصبّر ما أسرع أن انقشع حين راحت أم سحر وابنها يبديان هزأهما بلوازم الحجرة على مرأى ومسمع عم صاحبنا الذي جاء بها، فغادر الحجرة سريعًا، وفي صدره

نار تلظّى ودهش بلا حدود، وانفعلت أم صاحبنا بشدة، فيما راح عبد الرحمن يحاول التهدئة وقد وجد نفسه وسط معمعة لا يعرف لها سببًا ولا معنى، فيمنعه من التهدئة وتقريب المواقف أنْ لم يتنازل أحد من أهل سحر عن مبالغته في الذم أو اشتداده في السخرية.

وعلى حين غرة، بعد أن سمع كثيرًا مما غاظه، مستشعرًا خناجر تمزّق صدره، قام منتفضًا إلى بعض لوازم الحجرة التي سخر بها الثلاثة فرماه أرضًا، مطلقًا عبارات بذيئة يشتمه بها، ثم وقف بعناد كالمارد في مواجهة الجميع.

عمّ صمت الرهبة لحظة، ثم نظرت أم سحر في أم صاحبنا مستهجنةً، ليقطع الصمتَ دخولُ عمه الحجرة وقد وصلته الجلبة وهو في الخارج، لكنّ أصبع تدخله هذه المرة ما كان قادرًا على لجم انفجار البركان.

سحبت أم سحر ابنيها محتجّة، خارجة بهما دون أن تلتفت إلى صاحبنا، الذي تبع الجميعَ متأخرًا عنهم، يتأمل في ما جرى وقد لاح له ضربًا من الجنون، وقد استقر في صدره أن كل شيء قد انتهى، وعلى أن أمه وعمه لم يوافقاه في رأيه بل استغرباه، فقد أصرّ عليه متكئًا على معرفته العميقة ببيت حميّه. وأدركه الضياع، فهو لم يرغب بما حصل وحاول تفاديه قدر ما استطاع بيد أنه فُرض عليه، ولم يرج يومًا أن يكون ختام العلاقة على نحو كهذا، لكنه- فيما يرى- قد كان.

-٢٧-

تتالت الأحداث من بعد على صورة رآها الجميع هستيرية.

جُنّ جنون سحر، وراحت تتصل بعم صاحبنا لتقول إن قدرتها على التحمل قد تبددت، وأن صاحبنا وأفعاله ما تركا في قوس صبرها منزعًا، فالحدث الأخير ما كان إلا القشة التي قصمت ظهر تحمّلها، ولن ترضى من بعده إلا الطلاق.

اجتهد العمّ في محاولة تقريب الآراء ما وسعه فلم يفلح، وقد ساءه أنْ لم يكن على اطّلاع كافٍ بالأمور من قبل ليتوقّى ما آلت إليه، فإذا هو الساعة في أتونٍ من الضغائن والتراكمات كانت تتلظى بها الصدور تحت ستار ألفاظ الحب واللهفة، وكما كان ذاهلًا كان جميع مَن في الأسرة عدا صاحبنا نفسه، الذي تجاوز المفاجأة لما كان يعلمه من أمر سحر، وأخذ يستخلص الدروس ويفكّر ويعتبر، كأن في أعماقه يقينًا قديمًا أن هذا هو المصير لا محالة.

وبعد شدّ وجذب، ومماحكات ومشاجرات أنهكت كلّ مَن له يد في القضية، اتفق عم صاحبنا مع سحر على جلسة يحضرها في بيتها وحده من دون صاحبنا وأمه، فيتصل بعبدالرحمن من هناك، ليلقي الأخير على مسامع الجميع كلمة الطلاق، فقد رفضت سحر بعنف شديد أن يكون الطلاق مواجهَةً أو أن تحضر أم صاحبنا الجلسة الموعودة.

رآها صاحبنا نهاية عجيبة تدفع إلى السخرية، وأخذ يضحك فيما أمه تتميّز من الغيظ، وكذا راح مَن حوله يبادرُون إلى تهدئته وهو أكثرهم هدوءًا وثباتًا، لا يقصدون من تهدئته إلا أن يهدّئوا أنفسهم من ثقل ما سمعت ورأت، لكنه على ذلك لم يملك أن يخفي حسرة عميقة في صدره من أن ينتهي الحب- وإن تنافر أصحابه- نهاية فيها من الجفاء والبغض كل هذا.

ورسمت الأيام من بعد سريعًا النهاية الدرامية لقصة الحب التي كانت ملء السمع والبصر.

في ظهيرة اليوم الموعود هاتف صاحبَنا عمُّه يبلغه أنه متوجّه إلى بيت سحر، وما هي إلا ساعة وبعضها حتى اتصل به يدعوه إلى إلقاء الكلمة المتّفق عليها، فتنفّس عبد الرحمن الصعداء عميقًا، ثم راح يردد مغمض العينين كأنما يتلو شيئًا استُحفظه:

- أُشهد من يسمعونني جميعًا، أنك يا سحر يا بنت فلان وفلانة، قد بنْتِ مني بينونة كبرى، وأنك طالق طالق طالق ثلاثًا.

وما إن أغلق سماعة الهاتف، حتى غشيته سحابة من راحة، التفت إلى أمه فرآها صامتة تحدّق فيه بقلق، فبسم لها معزّيًا:

- اطمئني، والله إني الساعة لفي راحة لا تعدلها راحة.

وقام إلى جهاز حاسوبه كأنما نشط من عقال، فشغّل أغنية فيروز (طلعنا على الضو.. طلعنا على الحرية) رافعًا صوتها عاليًا، يشقّ به سكون الأصيل.

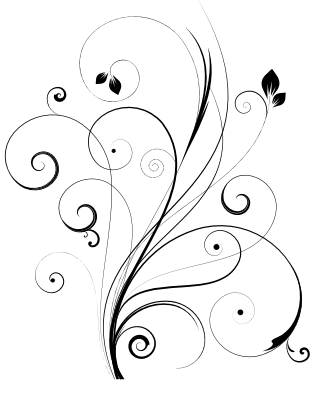

-٢٨-

لبث أيامًا من بعد في سكينة المعتبِر التي لا تخلو من حزن، يشغله أرقه عن عمله، ويملؤه شيء من المشاعر لا يعرف كيف يبين عنه.

مشاعر متضاربة طاغية تملأ كيانه وتثقل روحه، لكنه لا يكاد يدركها ولا يكاد يملك الإبانة عنها.

وفيما هو جالس إلى برنامج الفيس بوك يقلّب صفحاته بعد ثلاثة أيام، لفته اللون الأخضر إلى جانب اسم حنان، فافتتح معها الكلام، وقبل أن يخبرها بما آلت إليه قصة خطبته، ابتدرته بالشكوى:

- أمس، وصل قرار من هيئة الرقابة، وقرار من مديرية التربية، فيهما شيء حسن، لكنّ سيئهما غلب حسنهما كما العادة.

- وما كانا؟

- قرار بفصل ثلاثة من العمل في المدرسة، وإنذار إلى جماعة آخرين.

حلت في قلبه نشوة خفق لها، فسأل وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما ترقبًا:

- من الذين فُصلوا؟

كتبت له الأسماء، فسكنته سحابة من الفرح خارجة من إسار العقل عقدت لسانه لحظات:

- منذر، ولمى، ونادية من بعد؛ لأنها لم تقف في وجهيهما.

لقد رجا الكثير، لكنه لم يحسب ساعة أن تكون نهاية الثلاثة على هذه الصورة، وفيما راحت حنان تتذمّر من قرار الفصل لأنه ضاعف العمل عليها وتركها شبه وحيدة في ساحة التوجيه وفي بعض مسؤوليات الإدارة، كان صاحبنا قد غاب عن الدنيا وما فيها، وراح يصرخ بملء صوته وهو يرقص ضاربًا الأرض بقدميه:

- أمي.. أمي..

أتته مستغربة، فقصّ عليها ما علم، لكنها لم تُبد التفاعل الذي أراد، فسكنته خيبة عظمى ألا تشاركه شعور خلاصه وانتصاره الذي انتظره سنة وبعض السنة، وقد كانت أقرب الناس وأدراهم بما يناله من أحوال القلق والمعاناة، فسألها بنزق:

- أترينني وصلت بغيتي وانتقمتْ الأقدار لي، فلا تشاركينني ببعض فرح؟

فأجابت بصمتها محدقةً في عينيه.

فصاح بها:

- أجيبيني.

تنفست بعمق، ثم قالت:

- لا أحب أن أراك تفرح لأذى الناس كل هذا الفرح، وإن يكن أخذًا لحقك.

فتح فاه ليجيبها، فرفعت يدها في وجهه:

- أعرف ما ستقول، لا أقول إنهم لا يستحقون ما آل إليه أمرهم، بل ما كان لك أن تفرح كلّ هذا الفرح، ففرحك هذا أكثره لنفسك لا للحق، ونشوتك للثأر الذي حققتَه وإن لم يكن بيديك، وقد كنت تزعم أن صراعك معهم للحق وحده.

نظر فيها متهالكًا وقد عرّته زوبعة كلماتها من أردية تكلّفه كلها دفعة واحدة، فارتمى على مقعد صغير خلفه شاعرًا بالصّغار، وبأنها كانت أعرف منه بما في نفسه، فيما تابعت بشموخ:

- يحق لك أن تحارب من أجل نفسك، لكنك كنت تزعم أن حربك للحق، فحدّد الخيار قبل أن تدعي الصلاح والجهاد، وحدّد شعورك حين تصل مبتغاك: أهو الشماتة؟ أم النصر والفرح باندحار الباطل وأهله؟

رنا إليها بعينيه خجلًا، وقد تملكه تضاؤل لم يسبق أن شعر بمثله، وهي تنظر إليه بشموخ وعلوّ، وقد رسم مطرف صلاتها الأبيض هالة من التقوى والصلاح تضاف إلى وجهها الستيني المشرق.

-٢٩-

بعيد فجر اليوم التالي، وقبل أن تبلغ الشمس الحدَّ الذي تفرد فيه ظلالها على كامل الأجواء، فهي تتكسر بأشعتها شيئًا فشيئًا لتغشى المدينة بنور صباح جديد، خرج إلى شرفة منزله الواطئ، يحتسي فنجان قهوته متأملًا أشجار الأقبية المجاورة وروائح ياسمينها، وبأصوات العصافير واليمائم.

ومن قبل أولئك جميعًا بالمشهد الكوني الذي يسحب فيه الليل ما تبقى من أجزائه ليخلي المكان لنهار يوم جديد، والسيمفونية الطبيعية المتماوجة تملأ الوجود بأجزائه جميعًا.

كان صوت القذائف المتقطع، المنبعث من الجبل المطلّ على العاصمة ينطلق بين فينة وأخرى، فما عاد متتاليًا كما كان قبل عامٍ، وكما استمر أعوامًا، يربك أول انطلاقه العصافير فتهيج قليلًا، ثم تؤوب إلى مجالسها وزقزقاتها.

أعجبه المشهدُ، فراح يردد بصوت مسموع:

- حتى الحرب، لا تقدر مهما اشتدت على قتل الجمال الحق، وإن أفزعته قليلًا.

جاءه صوت أمه من خلفه تطلب منه أن يفسح لها، فأبعد مقعده قليلًا لتدخل حاملةً صينيّة القهوة، وعليها فنجانها وكوب ماء، وجلست إلى جواره جاعلةً وجهها في مقابله:

- كيف أنت اليوم؟

عبّ من نسيم الصباح، ثم أجابها بانشراح:

- بخير.

راحت تصبّ القهوة في فنجانها وهي تقول:

- أعزمت على شيء للعام القادم؟

نظر فيها بشيء من استغراب، فتابعت وهي ترشف الرشفة الأولى:

- المدارس على الأبواب، وينبغي أن تقرّر إن كنت ستؤوب إلى التدريس أم لا؟

سرح قليلًا، فتابعت كلامها وقد سرّها أن أوقدت ذهنه بشأن الجديد:

- أحسب أن لا مانع من العودة؛ وقد زالت الأسباب التي قضّت مضجعك.

فأجابها بنزق سريعًا:

- إن يكونوا زالوا، فأخشى أن يقابلني أمثالهم.

فانتفضت برزانة:

– هذا تناقض!! ألم تكن تقول إنهم لا مثيل لهم، فإن يكن لا مثيل لهم فقد ذهبوا، وإن يكن لهم مثيل كما تدّعي الساعةَ، فعليك أن تستفيد من دروس تجربتك معهم.

ثم شددت على مخارج حروفها:

– ومن دروس نهايتهم.

أظهر الضيق والتذمر، فأسرعت له بالقول:

– لا أحسبك سترى من يبلغون مبلغهم نفسه، أما أن تزعم أنك ستلقى الدنيا خضراء ممهّدة لا نغص فيها، فذلك مستحيل.

– لم أقل يومًا إني أريدها هكذا.. لكنْ ..

– أفهمك.. طبيعي ما تمرّ به، لكنك تعلم ضرورة أنه لا بد من صراع بين الشر والخير لأنهما لا يفنيان، وكلاهما مستكنّ في النفوس.

بانت معالم الانشراح على وجهه، وسكنه بعض الأمل:

– حسن، سأستجيب لقولك، وأرسل سيرتي الذاتية إلى بعض المعاهد والمدارس، فربما أعود إلى التدريس إلى جانب عملي العلمي.

ابتسمت له بحنان:

- ليست الحاجة ولا العبرة في التدريس نفسه، بل في العودة إلى الحياة ومجابهتها يا حبيبي، فذلك قدر مكتوب علينا نحن البشر.

وانطلق صوت قذيفة من أعلى الجبل هيّج العصافير قليلًا، ثم عادت إلى ما كانت فيه.

نظر فيهن بحنوّ، ثم سأل أمه:

- هل نقول إذًا.. إن الصراع هو جوهر الوجود؟

نظرت إليه بعمق، ثم ارتشفت من فنجان قهوتها مفكرة، لتقطع تفكيرها قبل أن يشتط بإجابة صارمة:

- لا أدري.

نظر إلى فسحة بين العمائر تبدّت منها السماء إلى أقصى مداها، وقد علت أشعة الشمس الذهبية رؤوس الأبنية، وانساحت على أجزائها ولا سيما شرفاتها، وبدأت خيوط نورية ترتسم في أفق السماء خالص الزرقة خالقة مشهدًا آسرًا، فعبّ من النسيم المتراقص حوله، ويده تمسك بعنق فنجان قهوته، وقال وهو ما يزال يرنو إلى السماء:

- لكنْ.. أحسب أنه لا بد من يوم أغرّ محجّل.

فأجابته وبسمة تفاؤل مديدة تملأ وجهها:

- نعم.. لا بد من يوم أغرّ محجّل.